الأمناء
مدرسة الفن والحياة

بنت الشاطئ

رجعة فرعون

يطلب من مكتبة الوفد ومطبعتها
بأول شارع الفلكي (سوق باب اللوق)
تليفون ٥٥٨٩٨ - مصر

الإهداء

إلى الشخصية المصرية . . . .

فى إيمانها الراسخ بالبعث ،

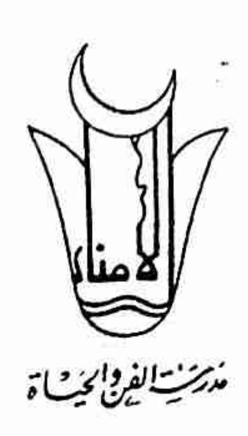
وشعورها العتيد بالأبدية ،

واطمئنانها المطلق إلى الخلود ،

تحية واعتزازا . م

بنت الشاطىء
(من الأمناء)

مصر الجديدة
يناير ١٩٤٨



يقدمون :

« رجعة فرعون »

إذا كان العلم تفسيراً تجريبياً للكون ،
وكانت الفلسفة تفسيراً تأملياً للكون ،
فالفن الرفيع تفسير وجدانى للكون ،
وفى « رجعة فرعون » تفسير لسر البقاء . . .

✡ ✡ ✡

إذا كان الفن الجليل قبساً من ضوء الشمس ،
وكان الفن النبيل نفحاً من نور القمر ،
والفن . . . . . . والفن . . . . . . ،
فالفن الصادق مبعث أضواء وأنوار ،
وفى « رجعة فرعون » عاطفة من نور ، و إخلاص من ضوء . . .

✡ ✡ ✡

إذا كان الفن الثائر تعبيراً أحمر قانياً ،
وكان الفن التاجر تعبيراً أصفر فاقعاً ،

والفن . . . . . . والفن . . . . . . ،

كان الفن العابد سماوياً ساجياً ،

وفى « رجعة فرعون » طاقات من البنفسج الحالم ، وألوان أخرى من أزهار . . .

✲ ✲ ✲

إذا كانت عقيدة البعث فلسفة تاريخ مصر ،

وكان الإيمان بالبعث ، مصدر خلود شخصية مصر ،

فهذا « البعث » اليوم ، سر نهوض مصر ،

وفى « رجعة فرعون » آيات للخلود والنهوض . . .

✲ ✲ ✲

إذا كان من أهداف (الأمناء) :

« أن يكون الفن نشاطاً وجدانياً يسعد الفرد والجماعة ،

فرجعة فرعون ، من هذا الفن المسعد . . .

✲ ✲ ✲

أيتها الأمينة ،

غبطة ، وتحية ،

مصر الجديدة
فى ١٩٤٨/١/١٥

من
الأمناء

القسم الأول

عالم القصّة

1 — الفن فى القصة

2 — دنيا النفس

3 — سر الفنان

4 — تجربة

5 — وواقع

6 — متى ؟ وأين ؟ وممن ؟

١ — الفن فى القصة

يشهد المتفنن حادثا أو حوادث يلتفت إليها التفاتة خاصة ، فينفعل بها انفعالاً بعينه ، أو تتملكه فكرة مسيطرة حافزة ، فيحس إزاء ماشهد أو مافكر أو ما شعر ، إحساساً قوياً يود معه أن يستديم ذلك التأثير أو يخلده ، أو ينقله إلى ذوى النفوس الشاعرة نقلا يمنحهم مثل الذى وجد من شعور أو إحساس أو تفكير ، و يدفعهم إلى مثل الذى صار إليه من تأثر ، فيصوغ لهم ذلك كله صياغته الفنية لقصة واقعة تسجل ما شهده ، أو خيالية تجسم ما انتبه له ، وذلك هو العمل الفنى الذى تحفز إليه حوافز نفسية لها حرمتها . . ودع عنك — أيها القارئ — ما سوى هذا من عمل تحفز إليه اتفاقات تجارية ، أو تدفع له حسابات مالية ، أو تدعو إليه رغبات عملية ، فذلك ما لا يُحسن بحق أن يصف خوالج صاحبه ، أو يسجل خطوات صانعه ، مهما تتلون تلك الخوالج تلونات نفسية ، ومهما تشتبه تلك الخطوات بالأعمال الفنية .

و إذا ما كان للقصة وفكرتها حيـاة فى نفس صاحبها الفنان ، وكانت حياتها فى نفوس قارئيها ووقعها على أرواحهم ، إنما هو صدى لتلك الحياة فى نفس صاحبها أو ذاك الوقع على روحه ، فإن من الخير لفهم الفن ،

ومن الخير لتاريخ الفن ، أن يعرف القارئ ذلك العالم الذى عاش فيه العمل الفنى وهو جنين ، وتقلب فيه وهو غيب مضمر ، لكى يدرك حياته الملحوظة فى النور المتقلبة فى الحس المشهود ، إدراكاً صحيحاً ، وهذا هو ما دعوته عالم القصة ، وأحببت أن أبدأ « رجعة فرعون » هذه بالحديث عنه ، بل بالإفاضة نوعاً ما فى هـذا الحديث ، لأن موضوع هذه القصة وحوادثها ، يحوج إلى ذلك ، أكثر مما يحوج غيرها من قصص لها موضوع غير نفسى وحوادث غير روحانية .

٢ — دنيا النفس

وهذا الذى أشرت إليه من عالم القصة ، يتصل بالحديث عن معنى آخر هو منه بسبب قوى ، وذلك ما دعوته « دنيا النفس » .

يعيش الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، فى دنيا تتشابه نواميسها المحسوسة تشابهاً قوياً ، أو تتقارب تقارباً كثيراً ، ولو تركت هذا الاختلاف فى الألسن والألوان ، وصرت إلى وحدة من ذلك فى أمة بذاتها ، ثم صرت من هذه الوحدة الفسيحة إلى وحدة ضيقة فى أسرة ، لاستطعت أن تجد الحياة فى سلف تلك الأسرة وخلفها ، تجرى فى ظروف مادية عملية ، ومعنوية خفية ، شديدة التشابه إن لم تكن متحدة أحياناً ، ولكنك ستجد — ولا شك — أفراد هذه الأسرة فى الجيلين المختلفين ، بل فى الجيل الواحد ،

يختلف انفعالهم و يتغير شعورهم بالشيء الواحد ، والشخص الواحد ، والحادث الواحد ، اختلافاً بيناً وتغايراً بادياً ، ولو سرت إلى أخص من هذا لوجدت الشخص الواحد بعينه ، يختلف انفعاله و يتغير شعوره بالشيء أو الشخص أو الحادث الواحد ، إذا ما واجهه فى الصيف مرة ، ثم فى الشتاء مرة أخرى ، بل فى بكرة اليوم ثم فى أصيله . وهو أشد تغيراً فى ذلك كله إذا ما واجهه فى حالتين متقابلتين : من صحة ومرض ، أو سرور وانقباض ، أو يسر وعسر ..

وهكذا ندرك أن وحدة الزمان، ووحدة المكان ، ووحدة الحادث الواقع فيهما ، لا يتحد بها أثر الحادث على الأشخاص المتشابهين الشديدى التشابه، المتقاربين الشديدى التقارب . كما نجد أن الشخص الواحد يختلف تأثره بالحادث الواحد إذا ما اختلف الزمان أو المكان أو الملابسات .. وما ذلك إلا لأن بجانب هذه الوحدة مهما تبد قوية ، عوالم نفسية متعددة متباينة . فوراء دنيا الناس المشهودة المحسوسة التى يتقلبون فيها ، ويتلقون الحياة منها ، دنيا أخرى أكثر تأثيراً وأبعد فاعلية ، وأعمق تلويناً بل تغييرا للأشياء والأشخاص والحوادث ، تغير ملامحها ، وتبدل قسماتها ، وتقلب أوضاعها ، وتؤثر على طعومها وألوانها ، وتلك هى « دنيا النفس »

وفى هذه الدنيا وبها ، يختلف عالم القصة على المتفنن الواحد ، والقارئ الواحد ، اختلافاً يجب التنبه إليه وتقديره ، وهو مايدعونى أن أحدث قارئى عن « دنياى النفسية » حين تقلبت فى أجواء هذه القصة ، وحين

ألقيت إلىّ حوادثها ، وحين اتجهت إلى تدوينها وإخراجها للقراء عملا أدبياً كاملاً .

٣ — سر الفنان

ودنيا نفس الفنان ، تضطرب بأمواج قوية صاخبة ، وتجرى فيها تيارات عنيفة جياشة ، مهما يرها الناس هادئة وادعة ، وصامتة مطرقة ، وساكنة مغفية. وتلك هى التيارات والأمواج التى يعنى بها أصحاب الفكرة النفسية فى فهم الأدب ، وتدعو إليها مدرستنا « الأمناء » إذ تسعى جاهدة « لرفع القواعد من المدرسة النفسية فى فهم الأدب وتاريخه » .

على أن ما بنا هنا ، إنما هو أمر تلك التيارات من حيث السرية والخفاء اللذان يحفظان على المتفنن شئونه الخاصة فلا تنتشر فى الأنحاء وتتكشف للناس ، أو من حيث العلنية والجهر اللذان يجعلان للجمهرة من قومه — قراء بل غير قراء أيضاً — حق الاطلاع على ما حوت تلك النفس وانطوى عليه عالمها ، وتلك هى فى الحق «محنة الفن فى حياة المتفنن» نعم أدعوها محنة الفن ، مهما تك محببة أو مكروهة ، مؤلمة أو لذيذة ، فهى محنة فى كل حال . لأنه حين يكون لكل إنسان — وإن يهن مركزه فى الناس — الحق كل الحق فى أن يخفى من شئون نفسه وحركات قلبه وخفقات روحه ، مايشاء أن يخفيه ، فليس للمتفنن هذا الحق أو بعضه ، لأن قدسه الروحى قد

استباحه الفن منذ وهب له روحه ، واندفع إلى حومته ، يجرى فيها مجبرا لا يلوى على شىء ، ولا يفضل هدفاً لشوطه على هدف ، لأن هدفه واحد بعينه لا غير ، هو أن يترجم عن إحساسه بالجمال ، ويخلد روائع الحسن التى تنفعل بها نفسه ، وتلك هى حقيقة الفن ومحنة المتفنن به .

وما أراه معها يستطيع أن يخفى شيئاً من عالمه النفسى هذا ، على قارىء يقظ ذى حس مدرك وشعور قوى. ولئن أخفاه ، أو بدا له أنه خفى حيناً ما على بعض هؤلاء — وياما أبعد ! — فلن يخفيه على ناقد صحيح ، يتدسس إلى طوايا نفسه ، ويهجم على خاص سره ، غير مستأذن ولا متورع ، لأن المتفنن نفسه قد أسلمه المفتاح ودله على الطريق ، فيما صنع من فن وما أعلن من عمل أدبى .

فأى ضير على المتفنن إذا ما بسط قلمه — بين يدى عمله — يصف روحه حين تأثر بما تأثر من موضوعه ؟ ! إنه إن فعل ، أراح قارئه وناقده ، ولم يخسر شيئاً . وكذلك فعلت هنا حين تحدثت وأتحدث عن دنياى .

٤ — تجربة

ومن هنا أقول فى غير مواربة ، إنى جلت فى عالم هذه القصة ، وأنا أخوض غمرة تجربة رهيبة عميقة .

تجربة عرفها الناس خالدة ولحظية ، محببة وبغيضة ، صادقة وكاذبة ، روحية وقذرة مضحية ، ومتجرة ، مُؤْثِرة وأثِرة ، قديمة وحديثة ...

تجربة شهدها آدم وهو يتحول من تراب إلى طين ، فإلى حمأ مسنون ، ثم يحور بشراً سوياً يعلم ما لا تعلم الملائكة .

تجربة شهدها الأب الأول وهو يجول فى الجنة ضجراً بالوحشة فيها ، وشهدها حين امتحن بهـا فأخرجته عن جنته وأهبطته إلى الأرض المظلمة بشرورها وآلامها ومتاعبها . ثم جعل بنوه يشهدونها واحداً واحداً إلى هذه الساعة التى تمر فيها هـذه الـكلمات تحت عين قارئها ، ثم إلى الساعة التى تتحول فيها هذه الأرض من حال إلى حال ، بقنبلة ذرية ، أو صيحة سماوية ، أو قيامة إلهية .

تجربة لازمت حياة الفن فى ألوانه المختلفة وضروبه المتنوعة ، ووجهته التوجيه الأكبر الذى قاد حياته على الأرض ، وربطه بالسماء حيناً ، أو الحضيض حيناً ؛ كما وجهته التوجيه الأصغر حين احتكمت فى عمل المتفنن فاختارت مثاله ، وعينت موضوعه ، ولونت إخراجه وصاغت أثره .

تجربة سخطها ساخطون ، وعابها عائبون ، أو لام فيها لائمون ، وكفر بها كافرون ، حين قدسها مقدسون ، ومجدها ممجدون، وحبذها محبذون ، وأغرى بها مغرون .

وهى بين هؤلاء وأولئك ، تلك التجربة الأزلية الأبدية التى كنت أخوض غمرتها حين تلى على الناس حديث هـذا الفرعون « بسوسنس » ثم حين أُلقى إلىّ من أصحاب الشأن فى هذا الكشف ، ما ألقى من حوادث هذه القصة أو أصولها .

وما بقارئ أن يسألنى ماذا كانت تجربتى بين تلك التجارب ، وحسبه منى أن أقول : إنها كانت تجربة عبقرية ...

٥ — وواقع

وإذ عرف القارئ دنيا النفس حين سمعتُ هذه القصة ، فإليه الحديث عن دنيا الناس التى كنت أعيش فيها إذ ذاك . . .

كنت أتابع دراستى الأدبية العليا فى الجامعة ، وأجلس إلى شيخ الأمناء « أستاذنا الجليل أمين الخولى » فى درس الأدب المصرى ، وهو يقرر « إقليمية الأدب» ويعلن أنها « قضية العلم فى تاريخ الأدب » ويؤثر أن ينهض أبناء كل اقليم بدرس الأدب فيه وفاء بحقهم على أنفسهم ، وحق الوطن عليهم ؛ وفى سبيل هذا ، يلم شيخنا الجليل بالمصرية ،

فيتحدث عن شخصيتها حديثاً قوياً ، صادقاً ، أميناً ، محرّراً ، فى غير خيال الشعراء ولا استهواء الخطباء ، و يبرز خلود تلك الشخصية إبرازاً علمياً يشهد به العرض التاريخى ؛ و يقرره الواقع المادى الذى يحتكم إليه الشيخ دائماً و يلتزمه ، حتى أمسى لازمة له إذا عُدت للناس اللازمات . . .
فكان شعورى بتلك الشخصية المصرية حين سمعت أحداث القصة ، ينهض فى نفسى صادق الهداية ، واضح الدلالة ، بيّن الغرض ، جلى الهدف ، لا كتلك الأصداء المرددة فى أجوائنا ، بذلك التلقين الساذج الذى لا يعرف نفسه ، ولا يتبين فى الحياة مكانه ، ولا يميز له فيها هدفاً .

أجل ، كان شعورى بالشخصية المصرية حين ألقيت إلىّ حوادث هذه القصة ، يستقر و يتحدد ، مدركا نفسه ، مقدراً صلته بسواه ، غير عاد ولا جائر فى ذلك على شىء من تراث الماضى المتيد ، أو حاجات الحاضر القاسى .

وكذلك حملت قلمى أتحدث عن الشخصية المصرية فى هـذه القصة ، بإملاء الواقع ، حديث الشاعرة بها ، الواعية لها .

* * *

و إذا ما كنت فى سبيل الحديث عن عالم القصة ، قد وافيت القارىء بالجانب المعنوى المتصل بها ، فقد بقى أن أحدثه عن الجانب المادى من هذا العالم ، فأروى له : متى ، وأين ، وممن سمعت حوادثها ، وماذا كان للمكان والظروف من أثر فى وعيها والشعور بها .

٦ — متى . . . ؟ وأين ؟ وممن ؟

كان ذلك فى شهر يناير من شتاء عام ١٩٤١ .

وقد مضينا فى رحلة نزور آثار مصر العليا ، ونرتاد أنحاء الصعيد .

وصلنا «الأقصر» فى منتصف الليل متعبين، إثر رحلة شاقة أجهدنا فيها السفر المتصل ، وأرهقنا البهر والإعجاب ونحن نشرف لأول مرة ، على عالم ماضينا الحى، ونشهد آثار أجدادنا العظام فى «تونا الجبل» ومقابرهم المنحوتة فى جوف الصخر على ذُرا الجبل فى « بنى حسن ... »

وقد أوينا إلى مضاجعنا فى تلك الليلة الخالدة ، وأرواح الفراعين تطيف بنا ، ورؤى معبدى الأقصر والكرنك تشوقنا ، وتتراءى لنا فى أحلامنا مهيبة رائعة ، ومشاهد الراقدين فى وادى الملوك ، تتبدى لنا فى الكرى رهيبة مسحرة . . .

✡ ✡ ✡

وتنفس الصبح ونحن وقوف على باب المعبد ننتظر الإذن بالدخول ، وتشاغلنا بالنظر إلى أفواج من الفلاحين ، وفدت من القرى المحيطة بالأقصر تحمل فى أيديها خيرات الأرض الطيبة ، وتحمل على وجوهها الشاحبة وأجسادها المتعبة أمراض الريف وشقوته ، حتى إذا انتهى موكبهم أخذنا نتشاغل بالحديث ، لكننا لذنا بالصمت بعد حين إذ كانت أرواحنا قد طوت الزمن إلى الماضى البعيد ، يوم كان المعبد عامراً يحج إليه العباد ، وتقدم فيه

القرابين ، وتتجاوب أبهاؤه بصلوات الكهان ، ورقى السحرة ، وتسبيح العابدين . . .

☆☆☆

وجاء حارس يفتح الباب . . .

رجل ضامر الجسم أسمر الوجه ، لفحته شمس الصعيد ووسمته بسمات جدوده الأقدمين . . . فتح الباب وانتحى جانباً فتدفقت وفود الزائرين ، وعلا الضجيج في أبهاء المعبد المهجور . .

ومضى رائد من مصلحة الآثار يجوب بنا أنحاء المعبد ، و يحدثنا عن دلالة الرموز ، ومعانى الصور ، وتراجم النقوش التى تغطى الجدران . ونحن نتبعه صامتين : بعضنا يصغى إليه ، و بعضنا لا يلقى بالا إلى ما يقول . . .

خيل إلينا أن هذه الرموز تناضل عن سرها الذى يذيعه الرائد، وتتشبث بسحرها المجهول . فعلقت أعيننا بالجدران، وشغلنا تمثلُ هذا النضال المؤلم ، عن الإصغاء إلى حديث الرائد وضجيج تابعيه . . .

☆☆☆

وانتهى بنا المطاف إلى البهو الثالث المفضى إلى قدس الأقداس، وكانت الأعمدة الصخرية المااردة قائمة على جانبيه كأنها صفوف من الحراس العماليق .. فاجتزنا البهو ، ووقفنا برهة حتى أوقدت الشموع ، ودعانا الرائد إلى دخول القدس الذى انتهك على مر السنين . . .

وتزاحم الجمع ، وتدفقت الوفود .

وكنا نفراً قليلا . . شخصين اثنين ، تخلفنا عن الجمع ووقفنا ننتظر صامتين . . وشردت أفكارنا حتى كدنا نغيب عن الجماعة ونحن بينهم لا يفصلنا عنهم سوى الباب المرصود الذى زحزحته عوادى الأيام والسنين.

ووقعت أعيننا — فى طوافها الشارد — على شخص غريب ، جلس فى زاوية البهو ذى الأعمدة ، منحنياً على قطعة من الحجر ينفض عنها الغبار فى صبر وأناة ، وينظف نقوشها بآلة دقيقة فى يده .

لم ننتبه إليه بادىَ النظر ، لكننا ما لبثنا أن سرنا نحوه ، وكانت قبعته البيضاء وبزته الناصعة ، تخطفان الأبصار فى الشمس المتوهجة من ضُحا « الأقصر » الوضاء . . .

ومضت فترة غير قصيرة قبل أن يرفع إلينا وجهه ، وقد بدا عليه شىء من الضيق ما لبث أن ذاب فى ابتسامته الهادئة الوديعة ، ثم راح يتبادل وإيانا نظرة مستفسرة متسائلة ، ويداه ما تزالان تمسكان بالحجر فى إعزاز . .

سألَنا : من الصعيد أنتما ؟

أجبنا : بل من أقصى الشمال . . وقد وفدنا زائرين . . .

فقال : وحدكما ؟

قلنا : بل مع هؤلاء الرفاق الذين تمتلىء بهم ساحة المعبد ، وتضج بهم أبهاؤه.

قال : ففيم تخلفكما عنهم وقد أذن لهم أن يدخلوا غرفة الهيكل ؟

فنظر كل منا إلى صاحبه ، ثم أجبنا فى صوت واحد :

لعلها حرمة القدس الذى استبيح ! !

فهز رأسه ولم يجب . . .

وجاء دورنا لنسأل من أين جاء وماذا يعمل ، فأشرق وجهه بابتسامة متواضعة وقال يقدم نفسه فى انحناءة خفيفة :

الأب « د » أحد المشتغلين بالمصريات .

وتصافحنا ، وأخذنا فى حديث طويل عن الآثار والحفريات ، ثم رحنا ننتقل فى رحاب المعبد حتى انتهينا إلى ساحة رمسيس ، فوقفنا نحدق مبهورين فيما بقى من صورة « مهرجان الآلهة فى عيد رأس السنة » ونصغى إلى الأب العالم وهو يصف لنا كيف كانت سفنهم المقدسة تخرج من الكرنك فى صبح ذلك اليوم ، وتسير فى النيل حتى ترسو أمام معبد الأقصر ، فيحملها إليه العباد ، حيث يمضى الآلهة يومهم هناك ، فإذا ما أقبل المساء ، حملت السفن إلى النيل ، وعادت إلى الكرنك . . .

ومرّ بنا الجمع عائدين من قدس الأقداس ، وقال قائلهم : تفضلا فقد خف الزحام . .

لكننا ظللنا واقفين ننظر فى جمود . .

ثم ثبنا إلى أنفسنا ، وحاولنا أن ندخل القدس ، ولكن شيئاً مبهماً غامضاً كان يقف دونه فيصدنا عما نحاول . .

أ كانت بنا رهبة من دخوله وقد أوقدت فيه الشموع كالعهد به فى

لياليه الخوالى وأمسه السعيد ؟ أم كنا نُكبر هذه الحرمة التى انتهكت ، ونشفق من ذلك السر الذى أذيع ؟ لم يكن أحدنا يدرى . . .

٭٭٭

ووقفنا برهة نتماسك، ثم حيينا الأب العالم وأدركنا الجمع ، وسرنا معهم نحاول أن نأخذ فيما هم فيه ، ونتحدث كما يتحدثون . . .

٭٭٭

وأقبل المساء . . .

ويالمساء « الأقصر » فى الليلة القمراء !

النور يتدفق ملء الكون ، فيحيل مياه النيل فضة تتألق ،

وينساب على الرمال الراقدة فى فناء المعبد ، فتغفو حالمة فى دعة واطمئنان .

ويتوج الصخور الوردية القائمة على الشط الغربى تحرس مراقد الملوك والملكات ، فتبدو فى جلال مهيب . . .

ويتجلى على جدران المعبد وأبهائه ، وعلى مآذن المسجد القائم إلى جواره ، سنا إلهيا من فيض السماء . . .

تفرق الجمع فى أنحاء الأقصر ، ومضينا معهم نرى المدينة ، ونشترى بعض الهدايا للأعزاء النائين . . .

وقال الرائد : لا بد أن تناموا مبكرين ، فموعد السفر فى الصبح الباكر من الغد القريب . . .

وقد تهيأنا للعودة إلى الفندق ، لـكننا أحسسنا نداء يلاحقنا و يطاردنا أنى اتجهنا ، نداء قويا ملحاً لا يقاوم ، فمضينا صامتين نلبى النداء . . .

✡ ✡ ✡

وأشرفنا على المعبد ، فتريثنا لحظة عند بابه نحدق فى أبهائه المـكشوفة وقد غمرها النور ، ونرقب الظلال المبهمة التى تنعكس من الأعمدة السامقة .

وشردت نظراتنا ، وتيقظت فينا أحلام هاجعات كانت قد انزوت فى أطواء قلبينا ، وأخذت رؤى الماضى ومشاهده تمر بنا ونحن فى حالة مبهمة بين النوم واليقظة . . .

رأينا أطياف ذلك الماضى تصحو من رقادها وتتجول فى أنحاء المعبد المهجور . . رقيقة ناعمة حالمة ، ثم تندفع إلى ماء النهر فيهتز و يرتجف . . .

و بدا المنظر رهيباً لا يحتمل . . .

فأشحنا بوجوهنا ، فإذا المـكان حولنا قد امتلأ بتلك الأطياف الحالمة المتواثبة ، يغمرها نور دافق ، و يشع منها سحر رهيب . . .

هنالك أحسسنا ظمأ مُلِحّا إلى العبادة ، فاستقبلنا الحرم الأقـدم مأخوذين مسحرين .

« قد تحرمنا من الدنيا بضوء القمر فردنا أرواحا لطافا . . .

ومنحنا من سناه شفيفا ورفيفا ، وتساميا وتجليا . . .

فإذا نحن ظلال كظلال المعبد الخالد ، ترتسم على ثراه وإن ملأت دنيـاه . . .

لا يحسنا شيء ولا يثقلنا شيء . . .

عيون شاخصة ، وقلوب خافقة ، وأفئدة مشوقة ، وأرواح مطوّفة هائمة . . .

قد أدارت الزمن ، وردت الأيام ، وطوت السنين . . .

وشهدت المشاهد الخوالى من وراء الزمان والمكان . . .

هذا موكب الملك ، وركب المجد ، يدخل المعبد المقدس ونفح الأرواح عابق . . .

عطور مسحور ، وترتيل من صوت الله ، وإيمان من فيض النور ، وسلطان يعنو لجبار السموات بعد ما عنت له الأنظار . .

قد ازدحمت بالجلال أرجاء المعبد وامتلأت بالروحانية أقداسه . .

رفت أجنحة الملائكة على جسوم البشر ، وملأت روح الله إهاب الإنسان ، وارتفع القمر قبساً ربانيا وضيئاً يهدى سبيل السماء ، فلسنا الآن من الأرض ، ولا فيها ، ولا لنا عليها مكان[(١)] . . »

وظللنا نطوف ونطوف ، قد نسينا الزمان والمكان ، والصحب والرفاق ، وغشينا دوار مُسكر فغبنا عن أنفسنا فى نشوة ذاهلة عابدة . . .

✲ ✲ ✲

وترددت صيحة الحارس فى الأفق فشردت أحلامنا وهزتنا فى يقظة

---

(١) من نشيد المعبد (مخطوط) للأستاذ أمين الخولى .

مباغتة ، ونظرنا فيما حولنا فإذا غير بعيد منا ظلان غريبان يسيران حول المعبد القديم . . .

هنالك أدركنا أننا لم نكن وحدنا نتنسم هذا الجو الساحر المسحور ، وإنما كان هناك من دعيا مثلنا لشهود موكب الأرواح . .

وتبادلنا النظر ، وامتدت أيدينا تتصافح . .

لقـد كان الأب العالم يحج إلى المعبد ، وفى صحبته الأستاذ « م » أحد علماء المصريات المشتغلين بالحفريات ، وقد ذاعت شهرته منذ اكتشف قبر شوشنق ، ثم بسوسنس فى عامى ٣٩ ، ١٩٤٠ على التوالى . .

هكذا التقينا على غير موعد، واندمجت شخوصنا الأربعة فى موكب متعبد ، يطيف بالمعبد متحرماً بالنور الأسنى !

✡✡✡

وامتد بنا الحديث ونحن فى سيرنا الوئيد على الشاطئ ، ذهاباً وجيئة ، أمام المعبد ، وكان يدور حول هذا الجو الساحر الذى تنسمناه لحظات ، وتمثلت لنا فيه رؤى الماضى حقيقةمشهودة واقعة ، فرأينا الأسـتاذ « م » يقبل علينا مصغياً لا تفوته كلمة واحدة مما نقول،حتى إذا فرغنا توقف عن السير برهة ، وأخذ ينقل بصره بين المعبد ووادى الملوك . . . ثم ثاب إلينا فراعنا ما على وجهه من شحوب مشرق ، وما فى عينيه من بريق يتألق . . .

وحدثنا حديثاً عجباً ، فخيل إلينا أننا ما زلنا بعـد فى غشية الرؤيا . . .

وبدا صوته الهامس كأنما ينبعث من أعماق عالم آخر . . .

قال :

« لا يروعنكما ما أحسستما الليلة ، فإن لهؤلاء الفراعين الراقدين فى أرض الوادى سحراً عجباً ما يزال أمره غامضاً وما زال القوم فيه مختلفين : بعضهم يثبته و بعضهم ينكره على أن هؤلاء وهؤلاء لم يستطيعوا أن يتجاهلوه ، و إن أعجزهم تفسيره وأعياهم إدراكه . . .

وأنتم سمعتم دون شك ، حديث « اللعنة » التى شاع انها تصيب من ينتهك حرمة هؤلاء الراقدين ، ولقد آمن بها مؤمنون وسخر منها ساخرون ، ولعل لهم عذرهم فى ذاك ، ولكن العجيب أنهم ذاقوا آخر الأمر عاقبة هذا السخر ، وانقلبوا برغمهم مؤمنين حين أحالوا على (لعنة الفراعنة) **كل** ما ابتلوا به من متاعب ونكبات .

وقد وقعت لى تجربة جعلتنى أصغى إلى كل ما يقال عن هذا السحر الفرعونى الخفى ، وأنتظر — فى ثقة وأمل — ذلك اليوم الذى يستطيع فيه العلم أن يقول كلمته فيه » .

وأمسك عن الكلام ، فرحنا نسأل فى لهفة :

بالله ماذا لديك من أمر هذا السحر ؟ ترى هل فكت تجربتك شيئاً من طلاسمه ، وقربته من ميدان العلم ؟ ؟

فابتسم فى هدوء وقال :

« لعلها فعلت أو كادت ، و إنه لكثير أن أحمل سواى على الإيمان بأن ما رأيت وسمعت وشاهدت ، كان حقيقة واقعة ، لكنى أرجو ألا يتسرعوا

فيحملوه على زور الوهم أو تهاويل الخيال، وأن يذكروا أن العقل لم يقل بعد كلمته فى هذه القضية ، ومن ثم فهو لا يستطيع أن يثبت أو ينكر، وما كان له أن يفعل وهو لم يكشف بعد كل الحجب ، ولما يزح كل الأستار . . .

إن العقل يجدّ فى الاتصال بالعالم الروحى الكائن وراء المادة ، ويدع المجربين يمضون فى تجاربهم والرائدين يوغلون فى ارتياد المجاهل ، منتظراً فى عطف وأمل ، ما تكشف عنه تلك التجارب والغزوات » .

فعدنا نسأله فى إلحاح :

— ألا تقص علينا هذه التجربة ؟ أم ترانا لسنا أهلا لتفضى إلينا بسرها ؟

فأجاب مسرعاً :

« بل أنتم أهل لأن تتلقوها ، وقد رفعت عنكم الساعة الحجب ، ولحقتم بعالم الأرواح ، فى تلك الليلة القمراء .

لكن الوقت لا يسعف ، وقد أوغل الليل ، فليكن موعدنا الصبح ، أو ليس الصبح بقريب ؟ »

* * *

وجاء الصبح فإذا بنا نساق مع الجماعة إلى استئناف السفر ، وعبثاً حاولنا أن نؤجل الرحلة . فقد كانت لها خطة مرسومة لا معدى عنها ، إذ هى مرتبطة باتفاقات وتعاقدات .

وهكذا شددنا الرحال إلى قنا ودندرة ثم أسوان ، وتركنا الأب العالم

وصاحبه فى رحاب (الأقصر) ، و بودنا لو بقينا معهما حتى نسمع القصة .
على أننا لم نمض قبل أن نتواعد اللقاء حين يستقر بنا المقام فى العاصمة .

***

وانتهت الرحلة .

وآن لنا أن نعود إلى ديارنا بعد أن عشنا أربعة عشر يوماً فى وادى السحر وصعيد الأحلام ، فلم نكد ننفض عنا غبار السفر حتى أسرعنا إلى الموعد ، وقلوبنا تتلهف على سماع ذلك الغريب وهو يتحدث عن سحر ماضينا . . .

وقد سمعناه ، وهذا هو حديثه ، أرويه اليوم فى أمانة ، تحية لذكرى ساعة السمر ، فى الليلة القمراء ، من ختام عام القمر [1] » .

---

(١) كانت تلك الساعة . فى ليلة البدر من ختام العـام الهجرى (١٤ من ذى الحجة سنة ١٣٥٩) .

البعث

« أذلك رجع بعيد ؟ ! »

١ — الصخرة الراصدة

قال :

وفدت على مصر منذ سنوات ، فى بعثة للكشف عما لا تزال تجن أرض الوادى من آثاره الخوالد ، وفى نفسى خواطر مبهمة شتى عن الروح المصرية الباقية ، والسحر الفرعونى العتيد .

وكنت قبيل حضورى قد شغفت بعلم الأرواح ، وشهدت كثيراً من جلسات الاستحضار التى ذاعت فى بعض أوساطنا المثقفة ، وشاركت فى عدد منها كوسيط ، ومارست بنفسى بعض التجارب فى الاتصال بعالم الروح ...

وأقبلت أقرأ ما كتب عن الديانه المصرية القديمة ، فراعنى إيمانها الراسخ بعودة الروح ، وشعورها العتيد بالأبدية ، واطمئنانها المطلق إلى الخلود.

ثم رحت أطوف بآثارها المنبثة فى أنحاء الوادى ، مأخوذاً بعظمة الفن المصرى فى دلالته الأمينة على شعور أهله بالقوة والرسوخ والثبات ، وتعبيره الصادق عن اهتمامهم النادر بالحياة الثانية ، وتلبية رغبتهم الملحّة فى الظفر بتلك الحياة ...

فلما أشرفت بنفسى على عالم موتاهم ، ورأيت بعينى ما أعدوا فى قبورهم التى كانوا يدعونها بيوتهم الأبدية ، وشاهدت مدى تشبثهم بحياة الروح

وحرصهم على تأمين السبيل لعودتها إلى الجسم ، داخلتنى طمأنينة نفسية إلى إمكان عودة الروح . طمأنينة آزرتها تجاربى السابقة فى جلسات الاستحضار.

لقد كان الموت أخشى ما يخشاه هؤلاء الراقدون — ولا أقول الموتى — ولم تع الإنسانية فى ذلك الماضى السحيق كفاحاً أروع من كفاحهم ضد الموت والظلمة ، والسكون والفناء .

وإن القارئ « لمتون الأهرام[1] » ليروعه رعب القوم من تلك اللفظة المشئومة ، وفرارهم من استعمالها فى ذلك العهد القديم ، ففى تلك المتون التى يبلغ عمرها اليوم سبعة وأربعين قرناً من الزمان ، لا تجد أثراً لكلمة الموت إلا بصيغة النفى أو مع الأعداء . وهم يعبرون عن الموت الأول بالصعود إلى السماء ، والسفر ، والحياة ، وربط حبال السفينة فى المرساة ، ويصرون إصراراً عجيباً عنيداً على أن الراحل حى لم يمت ، وأنه سافر حياً ، ليعيش أبداً .

✡ ✡ ✡

ثم كان أن اشتغلت بالبحث فى منطقة (صالحجر) فى شرق الدلتا ، فأفضى بى الحفر والتنقيب — فى مارس ١٩٣٩ — إلى مقبرة الملك شوشنق.

كان هذا كشفى الأول ، وقد استقبل بحفاوة وترحاب بالعين ، إذ تفضل جلالة الملك فزار منطقة الكشف ، واعتبره علماء المصريات أهم كشف جاء بعد العثور على مقبرة توت عنخ أمون .

---

(١) كشفها العمال المصريون تحت إشراف مريت باشا عام ١٨٨٠ فى هرمى ببى الأول ومرنرع — ويرجع عهدها إلى عام ٢٦٢٥ ق . م .

على أنى كنت منصرفاً إلى تأمل آثار فى جدران المقبرة ، تدل على وجود منفذين إلى غرفتين رجحت أنهما ما تزالان سليمتين ، وقد وددت يومئذ لو مضيت فى الحفر ، لولا أنى شغلت بإحصاء الذخائر ونقلها إلى المتحف المصرى . ثم انتهى موسم الحفر فعدت إلى كتبى وأوراقى وتجاربى ورحت فى خلوة مستغرقة ، أطوف بالعالم الآخر الذى شغل هؤلاء المصريين وآمنوا به إيماناً لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه .

وأقبل عام ١٩٤٠ ، فمضيت إلى « صالحجر » أحاول فتح المنفذين ، فاعترضتنا صخرة كبيرة من الجرانيت ، ظللنا نعالجها أياماً طوالا وهى ثابتة فى مكانها لا تريم ، حتى كاد اليأس يغلبنا ويردنا عنها .

وإذ نحن بين المضى فى الحفر والانصراف عنه ، بدرت كلمة عابرة من « الباز إسماعيل » رئيس الفعلة ، فهزت مسمعى وزادتنى تشبثاً بمعالجة الصخرة . كان يقول لمسيو (ب) مساعدى : « دعوها ، فلعلها مسحرة ! »

وهنا تبدأ القصة . . .

لم أكد آوى إلى مضجعى فى تلك الليلة حتى شعرت بضيق جاثم على صدرى ، فخرجت إلى الوادى أطلب بعض الهواء ، وكان الليل قد أوغل ، والهلال الوليد قد توارى بين قطع السحاب . .

وعوت ريح الشتاء ، وأنَّت طيور الليل ، وبدا الوادى لعينىَّ موحشاً رهيباً . .

ثم رف طائر صغير قريباً منى ، فعلقت به عيناى برهة ، لـكنه ما لبث أن غاب فى أحشاء الظلام . وأخذتنى فى إثر ذلك رجفة ذاهلة ، سمعت أثناءها صوتاً خفياً يلقى إلىّ أن تلك الصخرة الراصدة ليست سوى باب محوط برقى سحرية تناضل عن ملكٍ راقد ، وتصد عنه عادية الطارقين ...

وصمت الصوت حيناً ثم عاد يلقى إلىّ هامساً ألا أمضى عن الصخرة فأنا صاحبها الموعود !

لا أدرى كم لبثت فى غيبوبتى تلك ، على أنى حين ثبت إلى وعيى ، وجدت نور الفجر ينساب فى رفق على السهول والبطاح ، فجمعت نفسى وعدت إلى مخدعى متعباً مرهقاً ، أفـكر فيما كان ، وأنتظر ما يكون . . .

✡ ✡ ✡

وتنفس الصبح وأنا بين العمال ذاهل أو شبه ذاهل ، وقد ألقيت عليهم تعليماتى وكأن سواى هو الذى يتحدث ، حتى إذا بدأوا عملهم وراحت معاولهم الضخمة تهوى فى عنف على الصخرة ، ارتعدت وشعرت أن « الملك الراقد » يتململ فى مضجعه ويضيق بالطارقين . . .

ولقد كدت أسألهم أن يمسكوا ، لولا أنى لذت بإرادتى واحترمت حق العلم ، فتركتهم فى عملهم ، ووقفت لدى الباب أنتظر الساعة .

على أن الشمس غابت، وما تزال الصخرة جاثمة فى مكانها لا تتزحزح!

✡ ✡ ✡

فلما جن الليل ، تلبثت حتى سكت السامر وهجع الرفاق ، ثم تسللت

إلى الخارج حذراً ، وفى نفسى أننى سوف ألقى ذلك الطيف المبهم الذى لقيته فى الليلة الماضية .

وكنت أحدث نفسى عما عسى أن يدور بخلد روح الملك ونحن نزعجه فى إلحاح منكر : أتراها تظنه البعث فتتهيأ لليوم الموعود حين يُدق فى الناقور ؟

أما تراها تحسبه عدوانا من لصوص ، فتشفق على الجسد من عبثهم ، وتخشى أن تضيع معالمه فتخطئه الروح ، ويحرم (الملك) فرصة العودة إلى الحياة ، ويموت الميتة الأليمة البشعة التى لا أمل معها فى التمتع بالحياة الثانية ؟ ؟

ومسنى حزن طارئ وأنا أتمثل الروح فى جزعها واشتغالها و إشفاقها ، وازدادت كثافة الظلمة من حولى ، وشاع فيها الحزن والصمت والهمود .

واتكأت مجهداً على جذع شجرة هناك ، وأطرقت كأنما أخذتنى سنة من نعاس ، فرأيت الروح تطوف بالمكان وعليها سيما الجزع والحيرة . كانت تفتقد الكهنة الحراس وتود لو توقظهم من نومهم ليزفوا إلى الملك الراقد بشرى البعث إن كان الأمر بعثاً ، أو يحموه من عادية اللصوص إن كانوا هم الطارقين . .

ويح هؤلاء الكهنة ! لقد زعموا أن فيهم سراً من أسرار الإله ، فما بالهم اليوم تجوز عليهم الغفلة ، ويغشاهم النعاس ؟ ! لطالما حدثوا الملك عن قواهم الخفية ، وأروه خلال سحب البخور فى المعابد ، رؤى غامضة تحدث عن

السر الذى ينحدر إليهم من العرش الإلهى فى السماوات العلا . . .

وراحت الروح تستحضر المشهد الرهيب ، يوم أثقلت الملك الهموم ومسّه الضر والكلال ، بعد أن رحلت أميرته عن الدنيا وكان بوده أن يلحق بها لكى يبعث معها يوم تعود إليهما الروح ، وقد همّ فعلا بالسفر لولا بقية من حب الحياة — فى نعيم ذكرياته — كانت تربطه إلى الدنيا ، ولولا لوثة من الشك كانت تعاوده فتملؤه رعباً وجزعاً . كان يخشى أن تتحلل الجثة إذا طال عليها انتظار البعث ، رغم التحنيط المتقن . كما كان يشفق من يد سارقة ، تسلب ما على مائدة القرابين فى بيته من طعام وشراب ، فيخرج (قرينه) هائماً على وجهه فى الوادى ، آكلا ما يصادفه على الأرض .

على أن أخوف ما كان يخافه ، أن يهتدى أحد أعدائه إلى مخدعه السرى ، فيتسلل إليه فى غفلة من الكهنة الحراس ويشوه معالم الجثة ، ويحطم التماثيل القائمة فى سرداب البيت ، بحيث لا تجد الروح مقراً تأوى إليه ، فيكون الهلاك المحقق ، والفناء الأبدى ، والموت البشع الأليم . . .

✡ ✡ ✡

وغاب عن عينى منظر الملك فى حزنه وخوفه وشكه ، ثم رأيته بعد لحظات فى منظر ثان وقد أحاط الكهان بسريره الملكى ، يتلون أدعية مبهمة ويقومون بشعائر دينية غريبة ، ثم أخذوا يهونون عليه الأمر ويبثون فى نفسه الأمن والاطمئنان، مؤكدين له أنهم لن يبرحوا عاكفين على باب

مخدعه يحرسونه مهما تطل رقدته ، ويحمونه من كل معتد أثيم ، حتى إذا حلّ اليوم الموعود ، وردت الروح إليه بعد مطافها فى رحاب السموات ولقائها للآلهة ، وَجَدت الجسم سليما لم يفسده البلى ولم تمتد إليه يد عابثة . عندئذ يعود الفرعون مع أميرته فيشرفان على مصر من جديد ، ويعيدان ماضيهما السعيد ، ويستمتعان بما لا يزال يستهويه من حب ومجد وحياة .

وانتهت الطقوس والأدعية والصلوات وعبق الجو برائحة البخور، وشذا الأزهار ، وأريج العطر ، فأغمض الملك عينيه وقد أضاء وجهَه نور اليقين والسلام ...

وانتهى المنظر وأسدل الستار .

وزايلتنى غشية الرؤيا ففتحت عينى فإذا الظلام من حولى متكاثف متراكب ، وإذا الجو واجم حزين ، فانطلقت أعدو إلى مأواى ، والطيف يعدو أمامى ، وصدى صوته يلاحقنى مردداً فى مرارة :

« ... هؤلاء هم الكهان ينامون ...

تباركت يا رب فى سماواتك ...

إنك فى عرشك العالى لا تأخذك سنة ولا نوم ...

أفما كان خليقاً بالكهان ألا يناموا ، ما دام فيهم السر الإلهى الذى زعموا ؟ ! » .

ثم غاب الطيف ، وخرس الصدى ، وبقيت وحدى . ومن حولى الظلمة الموحشة ، والصمت الحزين .

٭٭٭

اقتربت الساعة ...

وبدأت الصخرة تتزحزح تحت عنف المعاول ، فسرت الحمية فى العمال وأقبلوا عليها يطرقونها فى شدة وإلحاح . وأنا واقف بينهم أحس وقع الطرقات على أعصابى قاسياً أليما ، وأرى روح الملك الراقد تطوف بالمكان وتتململ فى حزن وشك وضجر .

ما هكذا يكون مهرجان البعث ، فمن يكون الطارقون ؟ وماذا يبغون من الملك المسجى ؟ !

إنهم يدنون من مخدعه رويداً رويداً ، وقد سقط عنه سلطانه ، وبطل السحر ، وفُكَّت الطلاسم ، وحُلَّت الرموز .

وأغمضت عينى ، ووضعت أصابعى فى أذنى ، كيلا أسمع الطرقة الهائلة التى زحزحت الباب المرصود .

ثم ...

أبيح المخدع للطارقين ..

٢ — مخدع ملك

علا هتاف العمال حين زحزحوا الصخرة الراصدة ، واندفعوا يريدون اقتحام المكان فى ابتهاج صاخب . وقد حاول مساعدى (ب) كبح جماحهم فلم يستطع ردهم عما يحاولون ، حتى أذاع فيهم أننا لن يؤذن لنا فى الدخول قبل أن يفد مندوب مصلحة الآثار الذى استدعى على عجل . فانصرفوا فى احتجاج صامت .

فلما خلت الساحة ، اقتربت من الباب فى وجل ورهبة ، ومساعدى من ورائى يهنئنى بهذا الظفر ...

وأطل ضــوء الشمس على مكانٍ استأثر به الظلام شطراً من الزمان لم نكن نعلم بعد مداه ...

وتسلل الهواء فنفذ إليه من الثغرة التى تخلفت عن الصخرة المزاحة ..

وتبعناهما فى صمت ، فاجتزنا العتبة ثم لم تقو أرجلنا على متابعة السير ، إذ تبدى لنا فى تلك اللحظة التى لا تنسى ، مشهد مهيب لم تقع العين على مثله من قبل ...

لقد كنا فى مقبرة سليمة ، كاملة المعدات الجنائزية ، لم تمسها يد منذ دفن صاحبها ، فمن تراه يكون ؟

لم نكن فى حاجة إلى من ينبئنا أنه مخدع ملك

هذا صولجانه فوق الناووس ، مكسواً بصفائح من الذهب ، ومن حوله أوان ذهبية مختلفة الأحجام والأشكال ، و بينها كأس ملكية طولها نحو نصف متر ، على شكل زهرة اللوتس .

وهذه مائدة من الفضة ، لاتكون إلا فى قبر ملك ، تقدم عليها القرابين لروحه المقدسة .

و إلى يمين المدخل هيكل للحيوان الرمزى الذى يحمى الملك المتوفى ، وهو يشبه التمثال الخشبي الأسود ، المعروض فى الصالة العليا للمتحف المصرى بين مخلفات توت عنخ آمون ..

وهنا وهناك أوان من الذهب والفضة ، وأوعية من المرمر ، شبيهة بتلك التى عثر فيها على أحشاء توت عنخ آمون[1]

أفى الأمر شك أنه مخدع ملك ؟!

مضى صاحبى يحدق فى ذخائر الكنز مبهوراً ، و يصيح فى دهشة وابتهاج كلما وقعت عينه على شيء منها ، أما أنا فقد شغلت عن الذهب والفضة والمرمر ، وعلقت عيناى بفجوة فى الحائط الغربى ، نعرفها معشرَ المشتغلين بالحفريات ، باسم « الباب الوهمى » الذى يبنى فى المقبرة لتلج منه الروح عند ما يحين أوان عودتها إلى الجسد .

علقت عيناى بهذا الباب ، وقد غلب علىّ اليقين — ولا أقول الوهم — أن الروح تطل منه جازعة ، حائرة ، تترقب ..

(١) هذه البيانات مأخوذة عن المذكرة الرسمية لمقبرة بسوسنس .

وألفيتنى أتقدم إلى الناووس وأنحنى خاشعاً ، ومساعدى « ب » يتبعنى مأخوذاً بما كان يبدو على من مظاهر الخشوع .

وكان غطاء الناووس على هيئة إنسان مسجى ، يمثل الراقد ، وعلى رأسه إلهة جاثية ، تحميه بذراعيها الممدودتين ...

ودنا منه صاحبى وقرأ فى بطء :

« هوروس العجل المنتصر ، المهدى من آمون ملك مصر العليا ومصر السفلى » ...

« أخيبيرى ستبنرى ، ابن الشمس ، پيريا بسيو خانوت[1] »

ثم رفع صوته قائلا : « نحن إذن فى حضرة الملك بسوسنس آخر فراعنة الأسرة الحادية والعشرين »

ورددت الجدران صدى الصوت فخيّل إلىّ أنها أصوات فرقة كاملة من الحراس والحجاب ، تعلن مقدم الفرعون العظيم .

وعدت أحدق فى « الباب الوهمى » فشعرت بدوار يغشانى فتراجعت ، إلى الوراء وخرجت من المخدع .

وأسرع صاحبى لمعاونتى ، وقادنى إلى فراشى وقد ظنها نوبة الفرح بذلك الظفر المجيد .

على أنى ما لبثت أن شعرت بقوة غريبة خفية ، تقودنى إلى المخدع بعد أن غادرنى الزميل فى الفراش مجهداً أستريح ..

(١) هذا هو اسمه الكامل ، ومن الاسم الأخير ومعناه « النجم الذى يظهر على المدينة » اشتق اليونان اسمه الذى عرف به « بسوسنس »

ولم أكد ألج الباب حتى تضاءل شعورى بالدنيا والناس ، وتقدمت من « البـاب الوهمى » مسحوراً مذهولا ، فإذا الروح تطل منه وتلقى فى قلبى الرعب ...

لقد كانت تنذرنى « باللعنة » إن أنا عبثت بالجثة المسجاة !

٭٭٭

وحملت أسلاك البرق وأمواج الأثير أنباء الـكشف الخطير ، واهتز العالم أجمع بما بلغه من ذاك ، وراحت دور العلم تفتش فى ثنايا الـكتب عما وعى التاريخ من أخبار « بسوسنس » ، وأذاعت وزارة المعارف على الملأ مذكرة عن الأسرة الحادية والعشرين ، وبياناً بما كشف من روائع الآثار . . .

وحجت الوفود إلى صالحجر ...

واتجه علماء المصريات إلى النقوش يقرءونها ، وإلى الرموز يحلونها . .

وشغل أساتذة الفن بتقويم ما فى الـكنز من تحف ، ووصف ما امتازت به من دقة عجيبة وجمال أخاذ .

وانصرف رجال مصلحة الآثار إلى إحصاء ذخائر الـكنز ، وإعداد العدة لنقلها إلى المتحف المصرى .

ولجَّ هؤلاء وهؤلاء فى « طلب المومياء » لـكننى تلبثت طويلا قبل أن أجرؤ على رفع الغطاء عن جسد فرعون الراقد .

٣ — جسد وروح

ثم حان اليوم الموعود . . .

دلفت إلى المخدع ، ومن حولى مساعدى (ب) ، والأب (د) عميد علماء المصريات ، ومندوب مصلحة الآثار ، ونفر من رجال التاريخ والفن والصحافة دعتهم وزارة المعارف لشهود الحدث الجليل . . . .

ومُدت الأيدى إلى الغطاء ترفعه ،وعيناى لا تفارقان «الباب الوهمى» فإذا تابوت ثان من الجرانيت عليه اسم الملك وتمثاله ، ثم ما زلنا نرفع غطاء إثر غطاء حتى إذا انتهينا إلى التابوت الأخير الذى يضم المومياء ، خيل إلىّ أن الروح تبرح مكانها من الجدار الغربى ، وتحلق فوق الناووس ونحن نرفع الغطاء الأخير ، عن جثة ملكية سليمة ، مكفنة بلفائف من الذهب الخالص . . .

وتصايح القوم من حولى فى دهشة وعجب بالغين . وأحاطوا بى يهنئوننى وأنا فى وقفتى ساهم واجم ، قد عقلت الرهبة إرادتى وشلت حركتى وألجمت لسانى ، وراح بصرى يتردد بين الروح الحائمة فوق الجثة ، و بين هذا الجسد الراقد ، أكاد أشعر فيه بدفء الحياة ! !

فى تلك اللحظة الرهيبة ، ومض فى ذهنى خاطر غريب لم يخطر لى من قبل على بال . . .

هذا هو الجسد سليما لم يفسده البلى ، ولم تمتد إليه يد عابثة . . .

وهذه هى الروح حائمة ، تشهد ، وترقب ، وتنتظر . . .

تحل هذه الروح فى هذا الجسد ، و يكون البعث الذى آمن به المصرى القديم منذ آلاف السنين ؟ ! !

إننا فى جلسات الاستحضار الحديثة ندعو الروح ، وأقصى ما نطمع فيه أن تحدثنا غائبة ، أو على لسان وسيط ، وليس لنا إلى جسد صاحبها سبيل . أما هنا فجسد وروح !

روعتنى الخاطرة ، فنسيت القوم من حولى ، وعادت أصواتهم تصل إلى أذنى أصداء مبددة غامضة لا أميز مقاطعها ، وأجسامهم تبدو أمام عينىّ الذاهلتين شخوصاً مبهمة لا أستبين معالمها ، ولا أحقق ملامحها !

ثم انصرف الجمع وأنا بينهم حاضر غائب .

* * *

وحان الأصيل وأنا واقف بالعراء أنظر إلى المخدع بعد أن أزاح العمال ما فى طريقه من أتربة وصخور ، وخلوا بينه و بين الفضاء الرحب الطليق ، فأحسست ما يشبه الذعر وأنا أحدق فى الشمس الغاربة وقد راحت تجمع حولها قطعاً مشردة من أضوائها الباهتة ، ثم غابت وراء الأفق عند أقصى المغرب ، تاركة أشلاء ممزقة من الشفق ، تخضب السماء بحمرة كالدم ...

وسارت بى قدماى إلى المخدع حيث جعلت أطوف به ولا أجرؤ على الدخول فيه .

على أن شيئاً أقوى منى قادنى إلى الداخل ، وألفيتنى أردد — دون قصد منى — نشيداً من كتاب « فتح الفم » كان مسطوراً على جدار المخدع ، فبدا لى — وأنا أحدق فى الجسد الراقد — أنه يهتز فى تابوته ، ووقفت مذهولا أرقب مظاهر الحياة وهى تدب فيه شيئاً فشيئاً ، فتتحرك الشفاه ، وتومض العينان ببريق الحياة .

وغشيتنى غاشية من العجب والخوف ، كدت معها أفر من ذلك المكان المسحور ، ولكن قدمى سمرتا فى الأرض حين سمعت صوتاً خافتاً يقطع الصمت المخيم على المكان .

وكان شعورى بهذا الجسد الباقى السليم ، وهذه الروح المتحدثة من الآفاق العلا ، يجعلنى أحس إحساساً ، يرتفع إلى مرتبة اليقين ، بأن الملك هو الذى يتحدث :

سألنى : من أنت ؟

فسمعتُ صوتى يجيب فى همس خاشع :

— عبدك الخاضع يا مولاى . . .

فحدقت فىّ عيناه تتأملان وجهى وجسمى ، ثم قال فى يقين :

— كلا . . لست من رعاياى ! إننى أعرفهم ، سيماهم فى وجوههم من أثر اللفحة المباركة : ليس لك بنيانهم الشديد ، وسماتهم المعربة ، وتقاطيعهم البارزة ، ولونهم الأسمر الذهبى فمن تكون ؟

فانحنيت مجيباً :

— فتى غريب يا مولاى، وفد على دياركم من الدنيا البعيدة التى تنبسط وراء هذا البحر الأبيض الواسع . . . بهرتنا هناك تلك الأضواء الساطعة التى تشع من قبور الفراعنة الأمجاد ، فنزحنا عن الأهل والأوطان وجئنا نسعى إليها . . .

فابتسم الملك فى سخرية مرة ، ثم انثنى يقول :

— بهرك الذهب فجئت تسعى إليه ؟ إذن فها كه أيها الفتى الغريب ، انزع عنى هذا الثوب الأصفر الجامد الذى يشل حركتى فما أنا عليه بحريص . وددت لو أن لى مكانه فراشاً ليناً من العشب المندى بماء النهر المقدس ، ولفائف بيضاء من نسيج الكتان . . .

هيا يا فتى . . . خذه ولا تتردد

فاستدركت وأنا أرتجف :

— عفواً يامولاى : لم يبهرنى بريق الذهب. إننى من فئة تحررت من عبادة الصنم الأصفر وانصرفت إلى خدمة العلم والمثل الإنسانية العليا . إنما جئنا نفتش عن كنوزكم الخالدة التى حفظها الوادى الأمين بضعة آلاف من السنين ، وضن بها على البلى وعلى الفناء . . .

جئنا نتمم السِفر الخالد الذى كتبه التاريخ لمصر الفرعونية ، واعتز به على الزمان ، فحمله إلينا عبر القرون ، رائعاً عجيباً يحدث عن عظمتكم ويتلو على الدنيا نبأ ماضيكم المجيد .

وأمسكت عن الكلام ، فقد كان الملك يرنو إلى بعيد ، ويفكر فى شىء آخر غير مجد الماضى وعظمة الفراعين . . .

ثم استقرت عيناه على الباب وهتف فى شجو :

« إن أختى آتية إلى . . .

وأنا أصوب نظرى إلى الباب . . .

« وعيناى تتجهان إلى الطريق ، وأذناى تسمعان [١] . . . »

ثم أشار إلىَّ أن أنصرف ، فانحنيت وتراجعت إلى وراء .

---

(١) من أناشيد الغزل الفرعونى

٤ — فى انتظار الملكة

كانت ليلتى مسهدة ، ألمت بى فيها الأرواح ، وطافت بمرقدى الأطياف ، وقد لبثت أنتظر مطلع الصبح وهو يبدو لى بعيداً كأن الليل لا آخر له ، حتى إذا لاح نور الفجر ألقى بى السهد فى فراشى مجهداً لا أكاد أقوى على الحركة ، و بقيت هكذا حتى دخل على مساعدى « مسيو ب » قلقاً يسألنى ماذا بى ، و يعجب لما كان يبدو علىّ فى تلك الأيام من ذهول و إجهاد . . .

لم أشأ أن أفضى إليه بالسر الهائل ، على أنه حين أنبأنى بزيارته للمخدع فى بكرة يومنا ذاك ، سألته فى لهفة ، إن كان قد لاحظ على الجثة شيئاً ؟ !

فتساءل فى عجيب : أى شىء ؟

قلت أتدارك الأمر : أواثق أنت أنها سليمة لم يفسدها البلى فى ذلك العمر الطويل ؟

فأجاب وما يزال العجب بادياً عليه :

إنك لتعلم أنها لكذلك ، وما أنت فى حاجة إلى من يؤكده لك . . .

وأردت أن أزيل حيرته وعجبه، فتحاملت، وقمت أصحبه فى زيارة للمخدع.

وقد تأملت فى الملك حين ولجت الباب ، فراعنى أن أراه يرقد هادئاً ، خلواً من كل مظاهر الحياة ! ! !

واضطرب عليّ الأمر ، وحدقت فى الباب الوهمى وفى نفسى شك هائل فيما رأيت بالأمس ، فلعله لم يعدُ أن يكون خيالا ألمَّ ، ووهماً ذهب به نورُ الصباح .

لكن الروح أطلّت عليّ فى تلك اللحظة ، وأوحت إليّ أن وجود شخص غريب معى ، هو الذى يعوق الاستحضار ، حيث لم يؤذن لهذا الغريب باجتلاء ذلك السر الكبير . . .

✲ ✲ ✲

ثم ذهبت الأيام برهبة المفاجأة ، وزايلنى ما كنت أشعر به من خور واضطراب ، ولم تعد الغيبوبة تغشانى إلا فى زوراتى المنفردة بالمخدع ، حيث كنت أتصل بالملك بإرشاد الروح المحلقة دائماً فى المكان ، ثم لا ألبث أن أثوب إلى وعيي حين تزول الغاشية ، ولا يبقى فيَّ إلا أثرٌ من إجهاد ، يذهب به يسيرٌ من الراحة والاستجمام !

✲ ✲ ✲

انسقت بعد حين إلى زيارة فرعون ، فدخلت هائباً وجلا ومثلت بين يديه أنتظر .

سألنى : ما الأمر أيها الغريب ؟

فهتفت فى ضراعة وابتهاج :

« أنت يا من استيقظ معافىً ...

« أيها المحبوب من آمون ، رب القوة ، وملك الأرباب ...

« يا ابن "رع" الذى يشرق فى القبة الزرقاء ...

« إنك تشرق من جديد يا مولاى ، وتعود إلى الحياة ...

« بعد أن قبّلتَ السماء ، ولقيتَ الآلهة ...

« إن استيقاظك يا مولاى ملىء بالسلام !

« فلتفض عليك بركات السماء[١] ! »

وأصغى الملك إلى النشيد مبهوراً مسبل العينين فى نشوة حالمة ، حتى إذا انتهيت أطرق فى وجوم .

سألتُ :

— مابك يا مولاى ؟ أما شاقتك مباهج الوجود وأفراح الحياة ؟

قال وما يزال على وجومه و إطراقه :

« بلى : إنى لأحس الفرح يملأ أعطافى ، لكنى أفتقد «الأميرة» فأين تراها تكون ؟ أهى فى مخدعها تتهيأ لاستقبالى ؟ لن أشعر بسلام حتى تعود فتبارك هذه الحياة الثانية التى أرجع إليها اليوم :

ليتها تأتى مسرعة كالغزال ، فإنى مشوق إلى لقياها ... »

فرحت أتذكر ما وعى التاريخ القديم من أخبار الملك (بسوسنس) وأسرته ، لعلى أعرف الأميرة التى ينتظرها ، فإذا هذا الذى نعرفه عنه قليل قليل ، لا يتجاوز وجود[٢] اسمه منقوشاً على ثلاثة تماثيل لأبى الهول ،

---

(١) من متون الأهرام .

(٢) هذا البيان التاريخى مأخوذ من المذكرة التى أذاعتها وزارة المعارف فى فبراير ١٩٤٠ ، عقب اكتشاف القبر .

وتمثالين من الجرانيت لحامل القرابين ، وقطعة من مسلة وجدت فى الجيزة ، وقاعدة تمثال جاث على ركبتيه ، ولوحة صغيرة من القيشانى الأزرق ، وهذه جميعاً فى المتحف المصرى .

وفى الكرنك ، نص قديم ذكرت فيه السنة الثانية لحكمه .

وفى متحف برلين قطعة من الطوب النيء مطبوع عليها اسمه .

وفى مجموعة « فلندرس بيترى » خاتم محفور عليه اسمه ...

وليس فى هذه جميعاً ، ما يتصل بأسرته ، وأخباره الخاصة .

أما أميرات الأسرة ، فلم نكن نعرف منهن إلا اسم الأميرة « ما كيريه » إحدى بناته ، واسم الملكة الوالدة ، وقد عثرنا عليه حديثاً ، منقوشاً على إناء للنبيذ ، بين الآنية التى وجدناها فى قبر الملك منذ أيام .

وواضح أن الملك لم يكن ينتظر إحداها ... وإنما كان ينتظر زوجة أو حبيبة يهواها .

ولحظ الملك حيرتى فقال منكراً :

« ألست تعرفها ؟ ولكن كل شىء هنا يعرفها ويستطيع أن يحدثك عنها . . . لقد كانت ملكة الوادى أيها الغريب » .

ثم انصرف عنى وقال يحدث نفسه :

« ترى أين هى الآن ؟

إنها لم تكن تحتمل البعد عنى فكيف أطاقت على ذلك صبراً ؟ !

أيهون عليها أن تتركنى فى غمرات الحزن والأسى ، وإنها لتستطيع أن تمحو آلامى حين تشرق علىّ بوجهها الجميل وابتسامتها الحلوة الوضيئة ؟

أيهون عليها أن تتركني في هذا اليوم المشهود ؟

إنه يوم البعث ، وما أشوقني إلى أن أضع ذراعها في ذراعي ، ونستقبل معاً فجر عهدنا الجديد ، ثم ننطلق معاً إلى ربوع الأنس ومغاني الحب ، كي نرد البهجة والإشراق إلى الوادي الصامت المهجور »

وابتسم الملك ابتسامة مرة ، فهذا هو يستقبل يوم البعث وحيداً ليس معه من أفراح ماضيه إلا الذكرى والوحشة والحنين ...

لم أدر ماذا أقول للملك ، ونحن نجهل أميرته ، ولا نعرف من أمرها شيئاً ،

وضاق الملك بصمتي فجمعت صوتي وقلت :

— عفوك يا مولاي إني لا أعرف أين هي .

فظللتْ وجهَه سحابة من الحزن والأسى ، ثم اتسعت حدقتاه ، ولاح عليه أنه يكابد شكا أليماً ، وهو يصيح في غيظ وقهر :

« ويل للكهان ! أكانوا يكذبون يوم زعموا أنها سوف تبعث معي إلى الحيـاة » ؟

قلت أواسيه :

لعلها بعثت يا مولاي ، ولعلها في مكانها تنتظر جلالتكم !

فتشبث فرعون بهذا الأمل ، وهتف في قوة :

« أجل . لا شك في ذاك .

« تأبى الآلهة أن تفصل بيننا ، وقد وُعدنا باللقاء ...

« بهذا قضت السماء !

ثم التفت إلىّ وقال آمراً :

« مر الحراس أن يتركوا الباب مفتوحاً ، حتى تتمكن (أختى) من المجىء فى كل وقت ...

وتجد بيتها مفتوحاً » .

فهممت بالانسحاب لـكنه عاد يقول :

« بل انتظر حتى تهيء المكان لاستقبالها ! »

وأدار بصره فى المـكان ، ثم أشار إلى الأوانى الذهبية والفضية وأوعية المرمر ، وهتف فى حنان :

« هذه قوارير عطرها ، تتلهف شوقاً إلى جسدها اللطيف الرقيق ...

وهذه أوعية النبيذ المقدس ، تتحرق شوقاً إلى شفتيها الفاتنتين .

وهذه آنية الزهر ، تنتظر فى لهفة وشغف ، أن تضع فيها الزهور بيديها الناعمتين .

وهذا أخوها — مشيراً إلى نفسه — يتوق لمشاهدة جمالها ويقيم الصلاة للآلهة كى تمنحه إياها

وقلبه ملىء بالفرح والحب والشوق ...

سنلتقى اليوم ... ثم لا فراق !

بل يدى فى يدها ، أروح وأغدو

وسأكون معها فى كل مكان . »

وصمت قليلا ، ثم صاح يستوقفنى :

« قف أيها الفتى الغريب ...

إننى أنا الذى أذهب إليها . »

وهَمَّ بالحركة يريد القيام ، فلما أعياه ذلك قال فى ضعف :

أعِنِّى على النهوض يا فتى ، يجب أن أستقبلها بنفسى، إن موعدنا هناك ، فى مجلس الحب ، فوق الربوة المتوجة بأضواء السماء .

وأسبل جفنيه ومضى فى نجواه الخافتة :

« يا أجمل الناس ...

لقد طال شوقى إلى جنة الحب . ترى كيف هى الآن ؟

ألا تزال كالعهد بها حافلة بالسحر والجمال ؟

والزورق الذى أحببناه ؟ ما يزال راسياً على شط الغدير ينتظرنا ؟ أم حال عليه العهد وتناثر حطامه مع ريح الزمان ؟

ومجلس الحب فوق العشب الجميل ؟ ألا يزال كما تركناه ندىّ النبت ، وارف الظل ، عذب المياه ؟ أم ألح عليه الظمأ والجفاف فصوَّح النبت ، ونضب الماء ، وتلاشت الظلال ؟

والقمر الذى طالما رعانا ؟ ألا يزال على العهد به يتألق فى صفحة السماء وتنبثق أنواره الفضية فتغمر السهول والبطاح ؟ أم طال عليه الانتظار ، وأدركه اليأس من عودة الراحلين ، فخبا نوره ، وترك الوادى قفراً مظلماً ، تعوى فيه الذئاب ، وتلم به الأشباح فى تهاويل الظلام ؟ »

✡ ✡ ✡

وهنا غلبه الشجو ، فأغفى فى سكون حالم .



« الحياة الحب ... »

١ — الماضى الحى ...

٢ — مريض ...

٣ — دواء !

١ – الماضى الحى

وذات مساء ، وقفت غير بعيد من المخدع ، أحاول جهدى أن أريح رأسى من إجهاد التفكير ، لكنى ما لبثت أن أسلمته إلى تأمل منهك مرهق فى آفاق الروح .

وفجأة لمحت شبحاً قائماً بالباب ، فى سمت الملك وقامته ، فعدوت إليه وفى وهمى أننى أعدو منه . حتى إذا احتوانى المخدع ، غاب الشبح ، وألفيت الملك فى سريره يرنو إلى الوادى فى نظرة عابدة ، وهو يردد صلاة خافتة ، تحية للحب والذكرى ...

« يانور العين وياجمال الحياة . .

« لم أستطع النهوض للقائك ، لكنى لم أكف لحظة عن مناجاتك . . .

« ولست أدرى ماذا أقول !

« كل الكلمات تعيا عن وصف حبى لك .

« أنت وحدك اللفظ الأكبر ، والكلمة الخالدة ، والمعنى المشرق ، والتعبير الكامل . . .

« فإذا ما أرهقنى الشوق الملح ، وخنقتنى النجوى الحبيسة وشجانى الحب العاتى ، لم أجد إلا اسمك ألوذ به هاتفاً ، هائماً ، مشوقاً ، فألقى فيه الراحة ، والمتنفَّس ، والاطمئنان .

« يا نور العين ، و ياجمال الحياة . . .

« الوادى يبدو خاشعاً وهو يتهيأ لتقبل تحية المساء .

« قبل رحيل « رع » المبارك . . .

« وأنا هنا استقبل الليل متوجهاً إليك بالنجوى . . .

« وترانى الدنيا ساكناً ، صامتاً ، جامداً . . .

« لكنى بك فى فرح أبدى ، ونشوة فاتنة . . .

« وهذا قلبى : يرتفع إليك حيثما كنت ،

« ليغنى لك فى قوة ، وحرارة ، و إيمان :

« نشيد حبى وهواى » .

✡ ✡ ✡

ومضت عيناه تجو بان الوادى فى شرود الحالم ، لا تستقران على شىء ولا تقيمان فى مكان : تصعدان الربا ، وتنحدران إلى الأوديه ، وتحدقان برهة فى مياه الغدير ، ثم لا تلبث نظرته أن تنفر شاردة فتعاود طوافها الحائر ، وتأملها الحزين . . .

ومضى أكثر الليل والملك فى صمته وشروده ، ثم أطل علىّ بوجهه الشاحب وقال فى إعياء :

— طال ليلى فمتى الصبح يا فتى ؟

أجبت فى رفق :

دنا الفجر يا مولاى . .

فردد الملاك فى نجوى هامسة :

« دنا الفجر يا حبيبتى ، وكلانا ما يزال بعيداً عن صاحبه .

« دنا الفجر يا ملكتى ، وقد أمضيت الليل ساهراً أفتش عنك بين نجوم السماء ، وهذه هى تنحدر إلى مغربها حزينة شاحبة ، ونورها يخبو رويداً رويداً ، ويذوب فى نور الفجر الوليد .

دنا الفجر يا أميرتى ، وهذا قلبى يسكن إلى الصمت المريب والوحشة القاسية ، قد أجهده الشوق ، وأضناه الشجو ، وأرهقه السرى وهو يفتش عن نجمه الذى أضله ، فأضل معه الراحة ، والسعادة ، والسلام . . .

دنا الفجر يا فتاتى ، وهذا طيفك الغالى يلقى على مجلس الحب نظرات حزينة مودعه ، وهأنذا أفتح عينى من غفوة الحلم فأرى الفراغ المخيف يملأ دنياى ، والوحشة الكئيبة تئودنى بثقلها ، وأشهد وادى الجمال والسحر والأحلام ، موحشاً قفراً كأنه وادى الموت وتيه الظلمات . . .

دنا الفجر يا حياتى ، وهمت الأرواح السارية بالرحيل إلى مأواها البعيد قبل أن يدهمها ضوء الصبح وضجيج النهار .

دنا الفجر ، وأنت ؟ أين أنت ؟ أين أين ؟

الظلام يذوب . . .

وأنا أشهد أفول نجم الليل . . .

وغير بعيد منا مطلع الصبح . . .

عما قريب يشرق الضوء ، فيشرد أطياف الليل ، ويبعثر معها أحلامى الغاليات . »

✡ ✡ ✡

والتفت إلىّ يسأل :

— كم سنة مرت علىّ وأنا راقد يا فتى ؟

قلت : نحو ثلاثة آلاف سنة يا مولاى . . .

فابتسم ابتسامة حزينة وقال يخاطب نفسه :

« لكأن ذلك بالأمس القريب .

لقد كانت هنا ، ولا شىء معنا إلا الحب والليل .

تباركت يا آمون . . .

إنى أحس كل شىء ، وأذكر كل شىء . . .

أما كانت تقف هنا على الربوة مستقبلة السماء فى عظمة وجلال ، ثم اندفعت تضحك فى مرح ، وانطلقت فى الوادى ، تجرى ، وتثب ، وتغنى ، ملء الكون ، ملء الحياة ؟ !

هزها الفرح ، وشجاها الحب ، وزهاها الشباب فى ربيعها الناضر ، فى ريعان الحياة ، ومجد الأنوثة ، فنفرت كالغزال الشارد أو كالطير الطليق ، وصحا معها الليل ، وخرجت عرائس الماء من جوف النهر لتسمر على الشط المعشب ، وتألقت نجمة المساء وهى تدنو من القمر الفاتن فى نشوة وانفعال ، وشاعت الحياة فى الكون من حولها ،

وأنا واقف فى مكانى أشهدها ولا أجرؤ على الدنو منها ! تبدت لى مهيبة جليلة ، وغلب علىّ اليقين أنها إلهة تجسدت ، لتمنح أرضنا هذه قبساً من نور الروح ، وشعلة من نار الحياة !

ولبثت هكذا فى مكانى مسحراً مأخوذاً ، حتى أقبلت علىّ بوجهها المشرق وأخذت مجلسها إلى جانبى ، وانحنت على الناى فحبستُ أنفاسى لأصغى إلى صوتها وهو يغنى أشواقاً عذبة ، و ينطلق فى الـكون، عالياً ، صافياً ، فاتن النغم ، ساحر الإيقاع !

ثم صمتتْ والناى يغنى و ينوح ، فأطل القمر علينا من سمائه ، وتألقت مياه البحيرة ، وتأوهت أطياف الليل ، وسمعنا من بعيد هدير أمواج البحر وهى تناضل كى تصل إلينا ، فتقوم بينها السدود ، فتبعث فى الأفق أنيناً عالى الرنين .

ثم دنا الفجر ، فألقت الناى من يدها ، ووقفت فى جلال تملأ صدرها بالهواء ، وعدنا بعد ذاك إلى القصر ، حيث ألقت نفسها فى فراشها ، وأغمضت عينيها كطفلة غريرة لاهية ، وما لبثت أن سرَتْ إلى وادى الأحلام . . .

تباركت يا آمون . . .

كان ذلك فى الأمس ، منذ زمن يزعمونه ثلاثة آلاف عام ، ولـكنى أراه قريباً قريبا . وهذا شذا عطرها ما يزال ملء المكان ، وهذا شخصها ما يزال ملء عينى ، وهذا طيفها ما يزال ملء دنياى . »

وسمعنا خطوات تدنو من المخدع ، فصمت الصوت ، وخيم السكون على المكان .

☆☆☆

مضت أيام بعد تلك الأمسية ، والروح نائية عنى لا تدعونى ولا تلم بى ، وقد طال وقوفى بالباب أنتظر دعوتها حتى ألح على الضجر والجزع ، كنت — حيثما اتجهت — أرسل بصرى إلى المخدع ، مرهف السمع ، أترقب حركة أو أتسمع صوتاً ، ولكن المكان ظل على صمته وكآبته .

ولم أكن فى تلك الفترة أتردد على المخدع كثيراً ، وإذا زارنا زائر وطلب إلىّ أن أصحبه، التمست عذراً للتخلف ، حتى كدت أستنفد المعاذير .

ولاحظ مساعدى ذلك فسألنى فيه ، فاستضحكت قائلا :

— أشعر أحياناً بهيبة فى حضرة فرعون !

فسأل متعجباً :

— الميت ؟ !

قلت جاداً :

— عسير علىّ يا صاحبى أن أصدق أن هذا جسد ميت ، وقد عاش ثلاثة آلاف سنة فما فسد ولا بلى .

قال : إذن تراه حيا ؟

فأجبت مبتسما : أتوهمه كذلك !

فضج بالضحك ومضى يقول :

هب الأمر كما تقول ، ولكن سلطانه قد مضى . ففيم تهيبك ؟
أجبت فى هدوء :
— هذا تاجه وصولجانه بين يديه . ثم إنك تنسى أن عزة المَلِك لا تسقط بزوال سلطانه ، بل لعلها لا تسقط بالموت !
لقد كان فرعون مصر ، وكان هذا النيل يجرى من تحته ، وهو لذلك جدير أن يهاب .
أتراه لو نطق وقال : « كنت ملك هذا الوادى » أيجرؤ أحد على تكذيبه ؟ هذا شىء يا صاحبى لا سبيل للزمن إليه ، فما بالنا نستكثر عليه أن يحترم فى رقدته ، وألا نقتحم عليه مملكة صغيرة لا تتجاوز مساحتها بضعة أمتار ؟
فقال صاحبى وهو يتكلف الجد :
—هذه هى المملكة ، فأين رعاياه ؟
هتفت على الفور : أنا خادمه الأمين !
وتضاحكنا معاً ، وإننا لَجِدُّ مختلفين : هازل يتكلف الجد ، وجاد يتكلف الهزل ، وشتان !!

✡ ✡ ✡

كانت دهشتى بالغة، حين تراءت لى الروح فى الصبح الباكر تدعونى إلى حضرة الملك ، فإذا هو يقول لى فى صوت واهن ، وعلى وجهه ظل ابتسامة هزيلة :

— لا بأس عليك يا فتى ! ! إنك تضيق باقتحام زملائك هذا المخدع وأنا كذلك به ضيق ، لكنى أعلم أن العهد بسلطانى ولى وراح .

تطلعت إليه فى حزن و إجـلال ، لكنه كان قد انصرف عنى وراح يتأمل الوادى فى ذهول واجم ، ثم ثاب إلىّ وأمرنى أن أغلق الباب !

أشفقت عليه من اليأس فقلت متوسلا :

— عفواً يا مولاى ... إنها ساعة الشروق ، أفلا تشهد يا مولاى مجلس الحب وهو يستقبل أشعة الصبح البهيج ؟

قال مرتلا :

«إنها ساعة الشروق . . .

وعما قريب ، يبزغ (رع) بجماله وجلاله فى أفق السماء ...

و يتجلى فى موكبه : ساطعاً ، وقوياً ، وجميلا . . .

فيرسل أشعته فوق الأرض ، و إلى أعماق البحر الخضم العظيم ...

وهو باق على عرشه . . . هناك . . . فى السموات العلا .

إنها ساعة الشروق . . .

وعما قريب تصحو الأرض عندما تلمسها الأشعة المباركة . . .

و يتهلل الكون وتنطلق أساريره . . .

وتبتهج الدنيا ، وتزايلها غشية النعاس . . .

وتحيا الأزهار ، وتتحرك نشوى ، فى الموكب الذهبى . . .

وجميع الماشية تطفر على أقدامها . . .

وكل الطيور ، تغنى من الفرح . . .

وأجنحتها — التى كانت مطوية — تنتشر مرفوعة للخالق تعبداً ...[1] »

« إنها ساعة الشروق . . .

مولد الضوء ، وعيد اليقظة . . .

وأنا وحدى ، واجم ، حزين . . .

أَغلق الباب أيها الغريب . . .

كيلا أبدو كظل كابٍ فى ذلك الكون المتهلل المضىء . . . »

فعدت أتوسل :

أُغلقه يا مولاى ، ورؤى الماضى تلم بالمكان من ورائه وتناديك ؟

فتأملنى برهة ثم ردد :

« فى هذه المرة ، لن ألبى النداء :

لقد بطل سحر الوادى منذ غابت عنه مليكته . . .

كانت هنا من قبل ، تنشر الحسن والضياء على الأرض والسماء .

ثم غابت ، فأوحش المكان ، وبهت الجمال ! »

قلت فى ضراعة :

ولكنْ طيفها يا مولاى ! إنه لا يزال يملأُ المكان !

فابتسم فى تعب وقال :

---

(١) بعض مقطوعات هذا النشيد ، منقولة بتصرف من « أناشيد الشمس » فى « الأدب المصرى القديم »

« لم أعد أجرؤ على النظر إلى جنة الحب . فكل قطعة من أرضها ترتل نشيد حبنا العبقرى ، وكل ذرة من هوائها تتنفس بذكرى شجوننا وهوانا ، وكل قطرة من مياهها تعكس رؤى ماضينا الحبيب ... »

وأجرأنى اليأس أن أقول :

— ولكنك فعلتها من قبل يا مولاى .

قال مسلماً :

« فعلتها ... وكنت من الضالين .

تواعدنا — ساعة الفراق الأول — أن نلتقى فى مجلس الحب يوم نعود إلى الحياة الثانية ، فلما بُعثتُ تطلعت إلى المجلس ، وانتظرت ، ودعوت ، فما جاءت ، وما لبث النداء ...

يالها من ليلة !

لقد سألنى عنها كل شىء ، فما استطعت أن أجيب :

أحاطت بى الأطياف تسألنى أين ذهبت الأميرة التى كانت تفيض عليها من حيويتها ، ثم غابت فإذا كل شىء جامد لا حس فيه ولا حياة ...

وسألتنى عنها أزاهير الرياض ، وهتفت بى أن أرد إليها تلك التى منحتها بعض عطرها ، فتأرجت بالشذا والعبير .

وسألتنى عنها الطيور ، وتوسلت إلىّ أن أدلها على تلك التى كانت تشدو بالغناء فتعلم الطير كيف يكون الشدو والغناء . .

وسألتنى عنها عرائس الماء ، وقد شاقها مرأى تلك الحورية الفاتنة ، التى،

كانت تخطر على الشطآن ، فتخرج العرائس من مأواها فى أعماق المياه ، لنتعلم منها الرشاقة الآسرة والخطو الفاتن !

وسألنى عنها الزورق المعطل على حافة الغدير ، ورجانى أن أدعوها إليه لينطلق بنا عبر الماء ، كما كان يفعل فى الليالى الخاليات .

وكذلك فعلتُ ! !

رحت أسأل عنهـا الأطياف والأرواح ، والنجم والقمر ، والعشب والزهر ، والطير والشجر ، والزورق والغدير ، وما يملك شىء منها أن يجيب ! »

وتعب صوته ، فأدركته وهتفت :

— ما بك يا مولاى !

فردد :

— لا شىء بى ! لقد وهمتَ يافتى . . .

وساد السكون ، فلم أعد أسمع إلا أنيناً خفيا مبهماً وسط الظلام . . .

٢ — مريض

وتباعدت جلسات الاستحضار منذ افتقد الملك أميرته ، و بدا لى أن هيكله يذوى و يضمحل .

وجزعت لهذا ، وحاولت — بإرشاد الروح — أن أعالج الجسد الراقد بالتدليك ، و بعض مستحضرات التطرية ، وأضع بين شفتيه قطرات من العقاقير المنعشة ، والملك يتأملنى و يقول فى سخرية مرة :

« أفتزعم لى يا طبيب أن دواءك يرد إلىّ العافية ؟ ما أعجب غرورك ! لكأنك تزعم أن فى قدرتك رد الحياة إلى الموتى .

صدقنى يا طبيب ، إننا عرفنا سر الطب منذ آلاف السنين ، أكثر مما لعلكم تعرفون اليوم . وقد تكون وسائلكم تقدمت ، ولكن الغرور الذى يصور لك أن تصف دواء لكل داء ، يقصر بك عما أدركناه فى ذلك الماضى السحيق . .

ألم يعلمك طبك ذلك المبدأ القائل : « داو بالداء » ؟ هناك يا طبيب أدواء مصدرها النفس ولا دواء لها إلا بها . فالذبول ، والاضمحلال ، والكآبة ، والشرود ، والضجر، والسآمة ، كل هذه أمراض نفسية لا سلطان للعقاقير والمستحضرات عليها ... النفس وحدها هى الداء والدواء ...

وسكت لحظة يتأمل عقاراً فى يدى ثم قال :

هذا عقارك يا طبيب ، وأنا أتناوله ،

فهل تأسو به كلوم القلب وتضمد جراح النفس ؟

إنى أعرف دائى يا طبيب ، وكذلك أعرف الدواء ...

« إذا جاءت حبيبتى أخجلت الأطباء [١] ...

« لأنها ستعرف موطن الداء ...

« لقد هجم علىّ المرض

« وأصبحت كل أعضائى ثقيلة ، فإذا ما حضر إلى الأطباء ...

« لم يسترح قلبى إلى علاجهم ، وأنى لهم ذاك ...

« أما السحرة ، فلا حيلة لهم فى دائى الخفى ...

« إن اسمها هو الذى ينعشنى

« وغدو رسلها ورواحهم ، هو الذى يعيد إلى قلبى الحياة ...

« إن برئى فى زيارتها لى .. وإذا نظرت إلىّ ، عاد إلىّ الشباب

« وإذا تكلمت ، فإنى أصبح قوياً . .

« أليست هى العافية والحياة ؟ »

« لكنها غابت عنى ... »

ووجم صامتاً ، فانسحبت وبى رغبة فى البكاء !

☆☆☆

وعييت بالأمر ، فأفضيت بمخاوفى إلى الأب « د » عميد المشتغلين

(١) منقولة بتصرف عن المقطوعة السابعة من مجموعة شستربيتى .

بالمصريات ، بعـد أن استأمنته على السر الخطير ، وقد أصغى إلىّ فى عطف وتقدير ثم قال :

— هناك يابنى أمور تقصر عقولنا عن إدراكها ... لقد قال الفرعون حقاً : داو بالداء ! ياسبحان ربى ... ذاك مبدأ من المبادئ الأولى المقررة فى الطب . ألست ترانا نطعم الأجسام بجراثيم الأمراض لنحصنها ضدها !! على أنى لا أكاد أفهم ، فقل لى يابنى : أتزعم أن شأن هذا الفرعون شأن الأحياء ؟ أعنى هل يكون مثلك ومثلى ؟ !

قلت : وأى شىء فى ذاك ؟ ولكن فيم السؤال ؟

أجاب : لو أنه كان كذاك ، وحدثنى بما حدثتنى به اليوم ، لظننت أنه يحب !

قلت :

— ظن ذلك ولا بأس عليك ! إنه يحب حباً لا نتسامى إليه ، حبا لا تعرفه طبيعتنا البشرية المظلمة لأنها لا تطيقه ولا تحتمله ، ولا تتلقاه !

قال الأب وقد أخذه العجب والشوق :

— ألا تحدثنى عن هذا الحب العجيب ؟

أجبت : أنا أحدثك عنه ؟ وكيف ؟ وأنى لى بذاك ؟! إنه أروع من كل ما يطوف بأحلامنا ويتمثله خيالنا ، آه لو سمعته يتحدث عن حبه ؟ إذن لاحتشدت أمام عينيك مفاتن الرؤى ، وخيل إليك أن نجواه سمر للملأ الأعلى ! إنه يرتل نشيد هواه فيهز القلب ويزلزل الكيان ويذيب

الأعصاب ، ويشعرك أن الملائكة تمسك أنفاسها لتصغى مبهورة إلى النشيد ، ثم لا تلبث أن تحس أن هذه الأرض المظلمة ، قد استحالت قطعة من الجنة ، وجزءاً من السماء .

وآه لو سمعته يتحدث عن فتاته !! لا تطمئن إلى خيالك أيها الصديق فإنه فوق الحلم وفوق الخيال . . .

قال الأب :

— ولكنك سمعته يتحدث عن حبه ، وحديثٌ مثل هذا ، لا شك أنك واعيه ، فهلا أعدته على مسمعى ؟

قلت ضاحكا :

« أجل سمعت ووعيت ، وإن قلبى لينطوى على أنا شيده وترانيمه فى حرص وافتتان ، ولكن ياصديقى كيف أعيدها ؟ إنه لم يخلق كلمات لا نعرفها ، ولكن هناك شيئا وراء اللفظ ، هو هـذا الرنين الخلاب والوقع المؤثر ، والنغم الحلو . وكل ذاك لا يوصف ولا ينقل . قد أروى كلماته بعينها ، لكنى لن أزفها فى ذلك الجو الساحر الذى سمعتها فيه . كذلك من العبث أن أحاول وصف صوته وهو يرتل نشيده ويوقع أنغامه . . . أو أحاول تمثيل حياة ذلك الصوت ، أو ما فى نفسى من تلك الحياة .

إننا عرفنا الحب يا صـديقى ، الحب الذى تكفينا منه المتعة السطحية العابرة ، ويكفيه منا أن نتحدث عنه بلغتنا ونصفه بما شئنا من ألفاظها ، على أن هذه اللغة قلما تواتينا حين نتحدث عن حب سام رفيع ، يهز أعمق

ما فى الإنسان من مشاعر ، و يثير أدق ما فى إنسانيته من أحاسيس .

صدقنى ، إنى أغبطه . . وددت لو أعيش فى دنياه هذه ساعة واحدة ، تقوم بالعمر كله .

إننا لا نحيا أيها الصديق . . هـذا الجسد الراقد ينفعل بالحياة أكثر منا ، ويذوق من لذتها ما لا نذوق . . تقدم بنا الزمن ، وزاد عمر الإنسانية قروناً طوالا ، وتهيأ لنا من أسباب اللذة ووسائل الترف المادى ما لا عهد للأولين به ، لـكننا فقراء محرومون ، نعبر صحراء الحياة وقد ألح علينا الظمأ ، ولا شىء يَعِدنا بالماء العذب النمير : فنحن نستعذب المـاء الآسن ، وهو لا يحتمل ولا يطاق ، لولا أن المدنية تقدمه إلينا فى كئوس براقة لامعة .

إن مدنيتنا الحاضرة قد أسرفت فى اصطناع الزخرف ، وأتاحت لنا ألواناً غاشة خلابة من النعيم ، لـكى ننسى الذى حرمناه ! .

وليس يشعر بلوعة الحرمان ، وحرّ الظمأ ، وحرقة الجفاف ، إلا هؤلاء الذين أشرفوا على جنة السعداء ، أو شاموا بريق الحياة فى أعينهم .

ولقد رأيته ! رأيت هذا البريق يتألق فى عينى فرعون ، ويشع من هيكله الذاوى المضمحل ، وأشرفت منه على الجنة الموعودة ، فأدركت تفاهة المتعة التى تتيحها لنا لذاتنا القاصرة ، ورُحت أغبط هذا الجسد الذابل النحيل الذى يرقد وراء جدران هذا المخدع ، حياً كميت ،

أو ميتاً كحى ! إنه يحترق الآن باللهب المقدس .. بشريته تتبدد وتفنى ، لكن روحه سكرى باللذة الكبرى . . .

ألا إننا لفقراء محرومون ! نطفئ لهيب الظمأ بماء أجاج تعافه وحوش الفلاة . لكننا نسيغه ، لأنا لم نذق العذب النمير ! »

وصمتُ . . .

وسرنا على مهل مطرقين : كنا نفكر فى اللهب المقدس ، وقد أحسسنا قدرة على الانطلاق ، فهامت روحانا فى وادى السحر ، وأشرفتا على جنة السعداء ! .

✡ ✡ ✡

واستيقظنا بعد حين ، فسألت الأب فى ضعف :

— يجب ألا ننسى المريض . . . أفلا نفعل من أجله شيئاً ، أى شىء ! ؟

قال ولا يزال على إطراقه :

— داو بالداء كما قال لك ! فتش عن روح تملأ الفراغ الذى تركته فتاته .. ابحث له عن واحدة من سليلات الفراعين ، و بنات الملكات المصريات ! فما زال ذلك الدم الملكى العريق يجرى فى عروق المصرية الخالصة ، و يتشرب به كيانها فى ماء النيل الساحر وفى لفحة الشمس المباركة ، وفى هواء الوادى الأمين .

فأمسكت لا أجيب . . .

كنت أعلم أنها حيلة فاشلة .

واستطرد الأب :

— فلنجربها على أى حال . . . ليس للطبيب أن يترك وسيلة يظن أنها تخفف عن مريضه مهما يكن الأمل فيها ضعيفاً . . . والطب يبيح لك أن تجرب ما تعلم أنه إن لم ينفع فلن يضر . . .

إنه يخلو إلى جراحه فى هذه الوحشة القاسية ، وكلما قارن بين سعادة ماضيه وفراغ حاضره ، ألفى الفارق بينهما مخيفاً ، وليس أخطر على مثله من أن يخلى بينه و بين نفسه ، تستحضر أطياف الحياة الأولى ، وتفسد عليه حياته الثانية . أنقذه من نفسه ، ومن وحشته ، واشغله بيومه عن أمسه ...

أعرف أن المهمة شاقة عسيرة ، فليس من الهين أن تجد مثل أميرته ، وأشق من هذا ، أن يتم الاستحضار وفى المخدع فتاة غريبة . . .

ولكن فيم اليأس يا صديقى ؟ أيبعد أن تجد روح الملكة قد حلت فى جسد إحدى فتيات النيل ، من ذوات الفطرة المصرية الأصيلة ، وحاملات الدم العريق الخالص ، وحاميات خصائص السلالة الفرعونية ؟

٣ — دواء

قلت للملك :

— ألا تصفها لى يا مولاى ؟ إنى منطلق فى الوادى فباحث عنها لعلها بعثت فى غير هذا المكان .

فلم يجب وهممت بالانسحاب ، لكنه انتفض فجأة وراح يرتل :

« إنها فريدة . . .
« أرشق بنى الإنسان
« أخت منقطعة النظير
« تأمل ! إنها كالزهراء عندما تطلع
« فى باكورة سنة سعيدة
« ضياؤها فائق وجلدها وضاء
« جميلة العينين عندما تصوبهما
« حلوة الشفتين عندما تنطق بهما
« لا تنبس بكلمة فضول
« طويلة العنق ، ناعمة الثدى
« شعرها أسود لامع
« ذراعها تفوق الذهب طلاوة
« وأصابعها كأنها زهر البشنين .

« عظيمة العجز نحيلة الخصر .

« ساقاها تنمان عن جمالها .

« رشيقة الحركة عندما تتبختر على الأرض .

« لقد أخذت بلبى فى قبلتها .

« تجعل أعناق كل الرجال تنثنى عنها لانبهارهم عند رؤيتها ...

« سعيد من يقبلها .

« فإنه يكون على رأس الشباب القوى .

« ويشاهدها الناس كأترابها ..

« لكنها وحيدتهن ... (١) »

وقطع حديثه فجأة ثم قال فى صوت واهن :

« كيف أصفها ؟ إنها فوق الوصف ... إنها هى ... »

وتعب صوته فصمت ، وارتسمت على فمه ابتسامة هزيلة ...

☆☆☆

انطلقت رسلنا عبر الوادى تبحث عن فتاة شبيهة بتلك الملكة التى تغنى فرعون بأوصافها ، وجىء بعدد من المصريات اختيرت أقربهن شبهاً بها وأقواهن تمثيلا للجمال المصرى الأصيل .

وألبسناها ملابس فرعونية ، كتلك التى رأيناها على أميرات الدولة الحديثة ،

(١ — ١) القصيدة كلها هى نص الأغنية الأولى من أغانى (شستربيتى) كما ترجمها الأستاذ سليم بك حسن .

وأعلنتُ فى المنطقة أنها تعمل أمينة لى ، ثم بدأت أصحبها فى جلسات لقاء الروح ، لعل الملك يصحو مرة فيراها و يطمئن إليها ...

ولكنى انتظرت طويلا على غير جدوى .

☆☆☆

كان لظهورها — فى المرة الأولى — بغتة المفاجأة وطرافة الجدة ، وقد حدقت الروح فيها مبهورة متلهفة ، وهى تخطو إلى المخدع فى بطء رشيق . وكانت بلونها الخمرى الخلاب ، وشعرها الأسود المهيب ، وقامتها الفارعة الممشوقة ، و بشرتها الناعمة الجميلة ، وملامحها الرائعة المعربة ، وزيها الفرعونى العريق ، كانت بهذا كله ، تبث الحياة فى ذلك المكان المهجور الذى غشيه الصمت والجمود ثلاثين قرناً من الزمان .

على أن سحب الارتياب ما لبثت أن انعقدت فى أفقنا حين بدا على الفتاة الخوف والدهشة مما ترى فى ذلك المكان المسحور. كانت غريبة على كل شىء فيه ، تنظر إليه نظرة من لا عهد لها به من قبل ، وعبثاً حاولنا أن نذهب عنها الخوف والرهبة والعجب ، أو نمحو ملامح الاستغراب التى بانت فى وجهها ، وحركاتها ، وكيانها كله .

وكانت تلك ثغرة فى حيلتنا ، لا حول لنا فيها .

عادت الروح تتأملها حائرة ، مترددة بين شك و يقين ، وظللنا نحن بين يأس وأمل ، والفتاة واقفة مشدوهة متخاذلة ، لا يؤذن لها بشهود السر، ولا تؤمر بالانصراف فتمضى .

وأخذها دوار خفيف ، فاستمانت بشيء من العطر كانت تحمله ، واستأذنت في الخروج إلى الهواء الطلق . فلما تأرج الشذى في المخدع ، رنت إليّ الروح متسائلة : ما اسم هذا العطر ؟ قلت مسرعاً : Soir de Paris

فبدا أنها لم تفهم ، فاستطردت قائلا :

— وباريس هي عروس الدنيا الحديثة ، وجنة العالم الجديد ...

فأشاحت الروح عني كأنها تقول في غير اكتراث :

— لست أعرفها . .

قلت : لم يكن لها وجود في عهد مولاى ... إنها مدينة حديثة ، في ربيع نضرتها .

قالت : ولكنها هي لم تكن تعرف باريس ولا لياليها ولا عطرها ! كان لها عطر خاص بها تتضاءل بجانبه عطور (بنت) الفياحة العبير ، وكل الزيوت الغالية المتأرجة الشذى ... هو عصارة خالصة من زهور برية عَطِرة ، تعودت أن تجمعها بيدها من أحراش البرارى وشطوط البحيرة ، وكانت تشرف بنفسها على تقطيره وتسميه (عطر الحياة) .

وقلما كان يخطئه إنسان ممن سعدوا بخدمتها ، أو تشرفوا بالدنو من قصرها ، كان أريجها يغمر هؤلاء السعداء فيهتزون نشاوى ، ويترنحون مسحّرين .

وصمتت الروح ؛ وراحت تنظر طويلا في القوارير التي كشفنا عنها في المخدع .

واحسرتا ... إنها مضت ، ولم تعد . وهذه قوارير عطرها قد جفت !

وران الصمت على المكان .

☆☆☆

ورحنا نجمع بعض زهور البرارى ، فقطرنا منها عطراً فياحا ، وملأنا به القوارير الأثرية بمخدع الملك ، ثم ضمخنا به الفتاة ، وأدخلت إلى الحضرة الفرعونية وقد زالت عنها غمرة الدهشة ، ولم تعد غريبة عن المكان ...

لم يكد الشذى يعطر أرجاء المخدع ، حتى خِلت فرعون يصحو من رقاده مبهوراً زائغ البصر وأحسست أنه يتنفس ملء رئتيه ، و يملأ صدره من العطر فى عنف ونشوة .

وحامت الروح حول الفتاة ، فأمسكتُ أنفاسى وقد حلت اللحظة الحاسمة .

وثمت رأيت مشهداً رهيباً لن أنساه ..

اتسعت عينا فرعون واختلجت شفتاه ، ثم انتفض جسده كله انتفاضة ظاهرة لم تخف حتى على الفتاة ، فولت مذعورة هاربة تطلب النجاة . . .

و بدا عليه أنه ينكرها و يجهلها . وتملكه ما يشبه الغضب والسخط ، لكنه سكن بعد قليل وأنّ ينادى فتاته ، فارتد إليه صدى صوته ذبيحاً ، ممزقاً . . .

وهنا تخاذل المسكين ، ولاح عليه اليأس والهمود ، وأنا ماثل بين يديه قد أخذنى الفزع والقلق ، و بنفسى أن أحميه من رهبة الموقف ، لكنه كان قد غاب عنى فى إغماءة ذاهلة ...

ومضت ساعة : طويلة ، بطيئة ، ثقيلة ...

ثم فتح فرعون عينيه ينظر هنا وهناك كالحالم ...

وأخذ يشم الهواء فى عنف وبطء ، يفتقد فيه العطر الذى ألم به منذ حين . . .

وكنا قد أزلنا أثره من المكان ، إشفاقاً على الجسد المتعب .

وعلقت عيناه بالقوارير برهة ، فلما رآها جافة خاوية ، هز رأسه وقد رقت نظراته ، وترنح فيها الضعف ، والألم ، والشجن . .

☆☆☆

لم أكد أدخل على فرعون فى الزورة التالية ، حتى ألقى علىّ نظرة طويلة ثم قال فى إنكار :

« كأنك توهمتها هى ! ؟ هذا يؤذى جلالها أيها الغريب ، فما كانت لتشتبه بأخرى فى العالم أجمع . »

فأخذت لا أحير جواباً ، ومضى هو يقول :

« لقد فهمت الأمر كله يا فتى . . إنها واحدة من رعاياى — ويحى ما زلت أقول رعاياى ؟ ! — إنها فتاة مصرية ، جئتم بها وفى زعمكم أنها تملأ الفراغ هنا ، ويأبى الحب ما تزعمون ! ! »

روّعنى إدراكه لخطتنا قبل أن نطلعه عليها ، فقلت أعتذر وأحاول إصلاح الموقف :

— معاذ السماء يا مولاى ! إنما جئنا بها لأنها بمصريتها الأصيلة ،

وأنوثتها الرقيقة ، أجدر بالمعاونة فى العمل هنا من الرجال الغرباء .

فلم يبد عليه أنه ألقى بالا إلى ما أقول ، واستأنف حديثه :

«وظننتم أنها قد تكون ذات ملامح تشبه الملكة و يأبى الحق ما تظنون، فما كانت شخصية الملكة فى اللون والشكل و إنما لها سرها الخاص ، وجاذبيتها الفريدة ، وطابعها الفذ ، ومُحال أن تلتبس بسواها و إن اتحدت الألوان وتساوت الأشكال وتشابهت الأزياء .

فتشوا إن شئتم عن الفتيات الجميلات ، ذوات اللون الذهبى والأعين النجل والتقاطيع المعبرة والقامة المعتدلة ، فمنهن فى هذا الوادى كثيرات ، باركهن (رع) بأشعته السافرة المشرقة ، وأودعتهن آلهة مصر ، سحرها الأبدى العتيد . لكنكم لن تجدوا فى واحدة منهن ، ذلك السر الخاص الذى جعل ملكتى فريدة بينهن ...

أجل أيها الغريب : إن فى بنات النيل مثل لونها ومثل شكلها ، ولكن لها وراء اللون والشكل ، جوهرها النقى الخالص ، وفطرتها المشفَّة الصافية ، وسحرها الآسر الخلاب ... »

وانصرف عنى ، وراح يحدث نفسه :

« كانت جمال الدنيا وسر الحياة .

إذا ابتسمت ، رأيت ظل ابتسامتها على كل شىء فى الأرض والسماء ...

و إذا مشت أعلنت كل خطوة من خطواتها عن الحياة الدافقة الحارة فى كيانها اللطيف .

وإذا تكلمت ، انطلق صوتها من الوتر الإلهى فى حنجرتها ، عميقاً ، رنانا ، حلو الجرس ساحر الأصداء ...

وإذا أشرقت على الكون ، أحسست أنها تقبس الحياة من كل شىء ، وتُشِع الحياة فى كل شىء

تجد الجمال فى الحجر الأصم ، والجماد الصامت الهامد ...

وتهتز من نشوة وتأثر ، لمرأى الغدير الحالم ، والأفق الرحب ، والشط المعشب ، والطير الطليق ...

وتفهم النجوى فى همس الأطياف ، وحفيف الأشجار ، وخرير الأمواه ، وتغريد الأطيار ...

ويضىء كيانها كله بالبشر والمرح ، كلما ملأت صدرها برائحة النبت الحى والزهر النضير ... »

وعاد إلى صمته ووجومه ، فانسحبت مستأذناً وقد خيل إلى أنه فى حاجة إلى البكاء . وآه لو يستطيع ! !

٤ — علاج الحب

ساءت حال فرعون وبدأ أمره يدعو إلى القلق ، فقد تسربت إليه فى بطء بعض علامات البلى والانحلال . وصرت أعانى فى لقاء الروح من المشقة والجهد ما يرهقنى وينهك قواى ، وكأن الروح لم تعد قادرة — فى سهولة — على الائتلاف بهذا الجسد الذاوى الذى بدأت معالمه تتغير ...

كانت تحوم حوله طويلا ، وتتأمله فى شىء من الارتياب ، ثم تمضى عنه وتكمن فى الباب الوهمى حيث تظل جامدة ساكنة ، وأنا أتلو صلواتى وأقوم بتجاربى فى لهفة وعناء ... وكثيراً ما كانت قواى تتخاذل ، فلا أصمد للتجربة حتى تستيقن الروح من حقيقة هذا الجسد وتعود إليه ويتم الاتصال ...

وشغل رفاقى بما كان يظهر على من إعياء ، وما كان يعترينى من ذهول . وأشار الأب الصديق أن ألبى أمر الحكومة بنقل الجسد إلى المتحف المصرى ، لأريح نفسى مما ألقى ، فلما أبيت أن أصغى وصارحته بعزمى على المضى فى التجربة حتى نهايتها ولو استُنفدت فى هذا السبيل ، هز رأسه قائلا فى بطء :

— لك أن تضحى بنفسك ما دمت مصمما على ذاك ، ولكن ليس لك أن تضحى بالفرعون ...

لم أفهم ما يعنيه ، فوضع يده على كتفى وقال :

— دعه لنفسه أياما أخر ، تسلمه أحزانه وأشواقه إلى الموت والفناء ..

قلت :

— ولكننا فعلنا ما أمرت به ، جئنا بفتاة زعمنا أنها قد تدفع عنه سأم الفراغ ، فكانت النتيجة ما علمتَ ! أتراك تشير بأخرى يصيبها الرعب فتمضى عنا مذعورة هاربة كما فعلت أخت لها من قبل ، أو يخذلها رشدها عند التجربة فيمسها الخبال ؟

قال الأب فى هدوء :

— حق ما تقول يا بنى ، ولكنى ما زلت عند رأيى الأول : أنقذه من الفراغ ، واشغله عن نفسه وماضيه . وقد فشلت التجربة الأولى فلنغير وسائلنا ولنجرب حيلة أخرى . أخرجه إلى الدنيا يا صديقى تُنسه مبادئه ومثله وتُعِدْه خلقاً جديداً إن قدر له أن يظل على اتصال بالحياة . احمله إلى المتحف ، حيث آثارٌ من رفاقه الأقدمين ، وجدوده الأولين ، وخصومه وأصدقائه ، وأعدائه وأحبابه ... تلك حياة أخرى يا صديقى ... حياة كفيلة بأن تعجزه عن التحليق فى آفاق الروح ، فامض به فى غمارها ، تتعطل مشاعره ، وتسدل الحجب بينه و بين ذكرياته .

إنه يعيش هنا مع نفسه وأمسه ... وأميرته عائشة معه ، يراها فى رهبة الدجى ، وتهاويل الظلمة ، ونور الفجر ، وإشراق الصبح ، ووقدة الظهيرة ، وسحر الأصيل ، وتورد الشفق ، وروعة المساء ... فأبعده عن وادى السحر والأحلام ، وانطلق به إلى المدينة ينس جنته فى أضوائها ، ويشغل بما يلقى هناك ، عما يفتنه هنا .

قلت فى مرارة وخوف :

— ولكن التجربة هناك قد تغدو غير ممكنة يا صديقى الكبير ، ويعود جسداً محنطاً لا روح فيه .

فأجاب على الفور :

— ولكنك ترى يا بنى أنه يمضى إلى هذه النهاية مسرعا على عجل ، مع أنه مقيم هنا لم يبرح المكان .

قلت فى ضعف :

— لأن يفنى هنا ويذهب منفعلا بهواه العبقرى ، خير ألف مرة من أن نحمله إلى المدينة ، مجازفين بتجربة البعث ، ومقامرين باتصالنا بهذه الروح الكبيرة التى ترى الحياة الحب .

قال فى إصرار :

— ليس الرأى لك فى هذا يا بنى ... فدع الأمر يأخذ مجراه ، ولننتظر بعدُ ماذا يكون .

وقطع حديثنا دخولُ (الباز إسماعيل) رئيس العمال ، يحمل خطاباً

عاجلا من القاهرة ... وفيه تخطرنا وزارة المعارف بأنه « قد تقرر نقل مومياء ابسوسنس إلى جناح أعد له فى متحف الآثار . وحدد اليوم العاشر من شهر مارس سنة ١٩٤٠ موعدا لذلك الانتقال »

وفهمت ما هناك ...

لقد ضاق أولو الأمر بإبطائي فى تحديد موعد لنقل فرعون ، والتماس شتى المعاذير لتعطيل إجراءات النقل ، حتى رأوا أخيراً أن ينفردوا بالأمر دونى ويضعوا حدا لإبطائى وتعللاتى .

ناولت القرار إلى الأب العالم ، وخفضت رأسى وأنا أقول فى تخاذل واستسلام :

— أمرك مطاع يا أبى .

القسم الرابع

عالم ينهار

« هى الرغبة فى الحياة ... »

١ — صحوة الموت

٢ — عاصفة

٣ — صلاة

٤ — فنـاء

٥ — سر فرعون

١ — صحوة الموت

عند ما دنوت من مخدع فرعون أحمل قرار الحكومة بنقله إلى العاصمة ، أحسست رهبة ووجلا من الموقف . كنت أعرف منذ اللحظة الأولى أن الأمر شاق وعسير ، فهو مقيد إلى هذا المكان بقيود لا يستطيع الفكاك منها .. إنه المكان الذى يحمل معالم حبه و يضم جسد أميرته ، وفيه ينتظر البعث إن كان جسمها قد سلم من العبث والفساد ، وعزيز عليه أن يمضى عنه ، وما زالت ثم بقية من أمل ، تتيح له البقاء .

غير أنى لم أشعر بادئ ذى بدء بهذا الوجل الرهيب الذى هزنى وأنا أحمل الأمر إلى الملك ، ولست أدرى — حتى اليوم — كيف استطعت أن أقول له يومئذ :

« إن مصر الوفية لذكرى أجدادها الغر الأمجاد ، تأبى أن يظل جلالة الملك رهين هذا المخدع الضيق ، فى تلك المنطقة المنعزلة . وهى تود لو يتفضل فينتقل إلى عاصمة النيل ، حيث أعدت لإقامته هناك قصراً فخما على ضفته الشرقية ، تحييه الشمس كل شروق ، ويجرى من تحته النهر المبارك الميمون .

وفى هذا القصر ، يقيم الملوك الفراعين ينتظرون اليوم لقاءك، و يملئون عليك دنياك . »

وأمسكتُ ، فقد راعنى جمود الملك ، وكأنما أيقظه صمتى المباغت ، فابتسم من بعض فمه وقال فى هدوء :

« وما يمنعك ؟ افعل ما تؤمر به ولا بأس عليك . . . »

وألقى على ما حوله عليه نظرة طويلة ثم راح يرتل :

« وداعا جنة الحب :

النهار قد ولى والأمل المرجو قد خاب . والنجم المشرق قد أقلع وغاب ، و بقيت وحدى على ساحل اليم أنتظر وسط الضباب .

الأمواج تتواثب أمامى لاهثة فى ذعر أليم ، والأشباح من حولى تتهاوى كأنما تفر من مطارد .

وأنا حيث أنا ، وحيد أنتظر . . .

« وداعا جنة الحب . . .

تحت ظلك الوارف ، شربنا الخمر الإلهى ...

وعلى بساطك الندى ، ذقنا الهوى العبقرى . . .

وفى ربوعك الزهراء أحسسنا خدر النشوة ، وجنون الصبوة .

يوم كنا معاً ، والحب يرعانا .

واليوم ألم بك وحدى ، فإذا الوحشة تغشاك والكآبة تظلك ، وإذا أنا فيك غريب غريب ... »

وانطوى على نفسه صامتاً ، فدنوت أسأله :

« أيحس مولاى تعباً ؟ »

فانتفض قائلا على عجل :

« أحس تعباً ؟ أنت واهم يافتى . . إنما أحس الحياة تدب فىّ من جديد ... عما قريب أنطلق من هـذا المكان الذى أفنيت عمرى الثانى فيه انتظاراً . . . أنطلق لأفتش عنها فى كل مكان عرفناه ، فإن لم أجدها بحثت عنها فى أغوار اليم ومجاهل التيه وآفاق السماء . . . لن أهدأ حتى ألقاها ، وإنى لظافر بها وإن طالت علينا الآماد ، وتناءت بيننا الأبعاد . . »

وأذن لى أن أخرج ، وهو يبتسم ابتسامة ظافرة . .

ولما سعيت إلى الأب العالم أبشره ببرء فرعون ، هز رأسه وقال :

— لعلها يابنى صحوة الموت ...

٢ — عاصـــفة

دبت الحياة فى المنطقة من جديد ، وراح العمال يسعون هنا وهناك ، يعدون العدة لنقل « بسوسنس » وكنزه إلى المتحف المصرى بالعاصمة .

وكنت أرقبهم حزيناً جازعاً ، وفى نفسى خوف مبهم من كارثة أحسها تدنو ، و إن كنت لا أتبينها ، ولا أحققها ...

وران الصمت على المخدع ، وأخذت علامات التحلل والفساد التى بدت منذ حين على الجسد ، تظهر فى وضوح مُقلق .

وغابت الروح فلم تعد تلم بالمكان إلا قليلا . . وأمست تجار بى للقائها شاقة عنيفة ، تصل بى بعد الجهد الجاهد إلى سماع صلاة خافتة تتردد حول التابوت ، والجسد ساكن هامد ، لاتبدو عليه علامة من علامات الحياة .

وصار الموعد يدنو و يقترب ، والروح على حالها نائية مرتابة ، والملك على حاله صامت جامد ، شبه ميت .

ورحت كالمجنون أحلم بالمامة واحدة للروح ، وأمارس تجار بى فى عنف وقسوة ، وأرهق أعصابى وقواى لعلى أظفر بجلسة واحدة ، قبل أن نغادر ذلك المكان المسحور .

حتى كان اليوم التاسع من مارس فى ذلك العام ، وقد أعد كل شىء لنقل الجسد إلى العاصمة فى الصبح القريب .

وكان اليأس من إمكان الاتصال بالروح قد أسلمنى إلى نوع من الذهول الصامت الحزين . فجلست على الصخرة الراصدة أحدق فى القبر كأنى أودعته عزيزاً مات .

وأرسلت مشاعل النهار آخر أضوائها الخابية .

وأسلم النهار المتعب نفسه إلى غروب فاتر شاحب . .

و بدأ السكون يظلم ، والدنيا تتجهم .

والهلال الوليد لم يبزغ بعد .

وفجأة ، لاحت على الأفق نذر عاصفة عاتية ، فتصايح العمال المصريون:

« تلك أيام الحسوم ، و برد العجوز .. »

وانطلقوا يلوذون بخيامهم .

و بقيت وحدى فى العراء ، على الصخرة الراصدة ، وقد تضاءل إحساسى بما حولى ، فلم أعد أرى إلا قبر فرعون ، ولا أحس إلا ذلك الحزن الهادئ اليائس ، يغشانى فى فتور عذب أليم ...

ومر بى الرعاة عائدين إلى دورهم فراراً من العاصفة .

فى عيونهم مخاوف غامضة ، وعلى شفاههم نغمات مبتورة ...

وقطعانهم من ورائهم تضطرب فى خطاها .

لا حداء ، ولا رغاء ، ولا ثغاء . .

مضوا ، وخلفونى حيث كنت ...

كأنى قطعة مبهمة من ظلام المساء .

✡ ✡ ✡

وبرق البرق ، ورعد الرعد ، وأعولت الريح وبكت السماء ، وأنا فى جمودى الغريب ، أحس كأن السكون أجمع يشيّع هذا العزيز الغالى .

وبدا لى من الغدر والجبن ، أن أفر من هذا المأتم الرهيب ، وقد كان بينى وبين الفقيد ما كان .

ورحت أستمرئ طعم الحزن وأنتشى بالألم ، وأشتهى أن تلفنى العاصفة فى دوامتها ، ثم تلقى بى حطاما ، على ذُرا الصخر أو فى جوف اليم .

٣ — صـــلاة

ثم كان ما خِفتُ أنه لن يكون . . .

رف فى الجو طائر صغير شريد لم يجد ملاذا من العاصفة إلا فى حمى القبر فغاب فيه ، وسمعت على الأثر أصواتاً خافتة خِلتها من اضطراب أجنحة الطائر الحبيس ، لكنى ما لبثت أن ميزت فيها همهمة بترانيم صلوات أعرفها ، فأصغيت إليها وأنا أرتجف ، ثم دنوت من المخدع لأرى فرعون يرنو إلى الوادى فى سكينة وادعة ، وهدوء ساج ، وفتور حالم . . .

كذبت حواسى ، واتهمت إدراكى ، لكنى أيقنت أخيراً أن ما حلمت به فى العهد الأخير قد صار واقعاً مشهوداً ، وكنت أظنه من أحلام الكرى ، ورؤى المنام .

لم أتمالك أن صحت فى لهفة ، وانفعال : بوركت حياتك يا مولاى . . .

فنظر إلى طويلا ، ثم عاد إلى صلاته ، وكان صوته غريباً كأنما ينبعث من أعماق عالم آخر بعيد :

« إليك . . .

« إليك فى غسق الدجى ، والأطياف سارية ، والأرواح حائمة .

« إليك فى جوف الليل ،

« والسكون هاجع والدنيا نائمة . .

« إليك . . فى رهبة الصمت ،

وقد سكنت الأصوات ، وثقلت الأجفان ، وهمدت الأجساد .

« إليك . . . فى روعة التجلى ،

وقد أخليت الآفاق ، وفتحت أبواب السماء ...

« إليك ، إليك !

« أرفع نجواى . . .

☆☆☆

« ما الليل ، ما الدجى ، ما الظلام . ؟

« ما الصمت ، ما العزلة ما السكون . . ؟

« إنى لأشعر بك ملء الدنى ، ملء الأكوان . .

« فإذا الليل حلم ،

« وإذا الدجى إسراء ،

« وإذا العزلة اختلاء بالحياة . .

« وإذا بى من هذا كله ، وفى هذا كله ،

« طيف إلهى قد دانت له الدنيا ، وذل السكون . .

« وتعالى مصعداً فى الجواء .

« والحياة تسير من ورائه ، وتتعلق بأذياله .

« والأرض من تحته : ضئيلة ، ثقيلة ، هامدة !

« وأنتِ ، حيث أنت ، فى علاك ...

« تصغين إلى نجواى .

✡ ✡ ✡

« ما البعد ، ما النأى ، ما الفراق ؟

« ما الآماد ، ما المسافات ، ما الأبعاد ؟

« إنى لأشعر بك ملء العوالم ، ملء الآباد . .

« فإذا الآماد تفنى ، و إذا المسافات تطوى ، و إذا الأبعاد تلغى . . .

« و إذا بى ألقاك فى كل آن . . .

« لأنك فى كل مكان ، على الأرض أو فى السماء .

« وأنا أبدا معك . . .

« وأنت فى علاك

« تصغين إلى نجواى . . .

✡ ✡ ✡

« ما الأمس ، ما اليوم ، ما الغد ؟

« ما هنا ، ما هناك ، ما هنالك ؟

« إنى لأشعر بك أعمق من الماضى ، وأجلى من الحاضر ، وأبعد من المستقبل . . .

« وأحس بك تتجاوزين هنا ، وهناك ، وهنالك . . .

« فإذا بهذه المقاييس والحدود تمحى أمام جلالك وسموك

« وإذا بى أعيش منك فى عالم واسع لا أعرف فيـه أمس ، واليوم ، والغد .

« ولا أميز فيه هنا ، من هناك ، أو هنالك

« وإذا بى أرحب من هذا كله ، لأنى منك .

« وأنت فى علاك ،

« تصغين إلى نجواى . . .

☆☆☆

« ما اليأس ، ما الأمل ؟

« ما البؤس ، ما النعيم ؟

« ما الحزن ، ما الفرح ؟

« إنى لأشعر بك أكبر ، وأعظم ، وأجلّ ، وأجمل ...

« فإذا باليأس والأمل ، والبؤس والنعيم ، والحزن والفـرح ، ألفاظ تافهة ، مبهمة محدودة مقيدة ،

« لا ترتفع إلى أفقك ، ولا يحدّ بها عالمك ...

« وإذا بحياتى كلها نغم خالد سَنيّ .

« صيغ من نور وبهاء . . .

« وأنت فى علاك . . .

« تبعثين فىّ هذا النغم ، وتباركين نجواى . . .

✡✡✡

« ما الحياة ، ما الموت ؟

« ما الخلود ، ما الفناء ؟

« ما البقاء ، ما الزوال ؟

« إنى لأراك فوق هذا كله ، وأعمق من هذا كله

« فإذا بتلك الألفاظ تختلط عندى ، وتتشابه ، وتتضاءل .

« لأنى أحيا بك وفيك : حياة هى أحيا من الحياة ، وأقوى من الموت ، وأعز من الخلود . . .

« و إذا بى أغدو بك سرا يستعلى على الحياة ، و يستضعف الموت ، و يستصغر البقاء . . .

« لأنه فوقها جميعاً

« وأنت فى علاك . . .

« تكشفين لى عن سرك الأكبر

« ثم تصغين إلى نجواى . . . »

✡✡✡

وذاب صوت الملك فى عبادة خافتة ، فانحنيت أصلى معه فى خشوع غامر ، ورهبة لا تحد ولا توصف .

وصحوت من غشيتى العابدة بعد حينٍ لا أقدر مداه ، فدنوت من الملك

وجلا حائراً لا أدرى كيف أعده لرحلة الصبح الباكر ، وكأنما أدرك الموقف فنظر إلىّ متسائلا :

« هل حان الموعد أيها الغريب ؟ »

قلت وقد راعنى ما بدا عليه من انهيار وشيك :

« كلا يا مولاى : موعدنا الصبح ، ولما نزل فى جوف الليل ... »

فهدأت ملامحه ، وعاد إلى سكينته الحالمة ...

٭ ٭ ٭

وكان علىّ أن أمضى ، فأعد ما بقى من متاعى وأجمع أوراقى ، وقد أجّلت هذا إلى اللحظة الأخيرة ، إشفاقاً من فكرة الانتقال ، وتعللا بأمل ضعيف فى إمكان استبقاء الملك حيث هو . فلما كانت الساعات الأخيرة ، أقدمت أحزم متاعى فى استسلام صامت واجم ...

غير أنى لم ألبث أن شعرت « بالروح » تملأ المكان حولى ، وتشيع فيه كآبة حزينة رهيبة .

وعدت إلى المخدع ، وفى عزمى أن أمضى الساعات القليلة الباقية ، فى صحبة هذا الجسد الملكى الذى استشرفت منه على عالم الروح ، وكان وسيلتى فى تلك الرحلة العجيبة إلى الآفاق البعيدة ، وراء المادة .

وكنت أظن أن فرعون قد فرغ من عبادته ونجواه ، وعاد إلى جموده وصمته ، لكنى ألفيته فى سكينته الوادعة ، وفتوره الحالم ، يرنو إلى كل جزء فى المخدع ، ويطيل النظر إلى قوارير العطر الجافة ، والزهريات العاطلة .

وإذ أنا مشفق من هول اللحظة المرتقبة ، والصبح يدنو رويداً رويداً ، سمعت صوته الغريب الواهن ، يردد صلاته الأخيرة :

« يا سر الوجود ، ويا جمال الحياة ...

« شاقنى أن أمضى إليك ..

« فى عرشك الإلهى ، وأفقك العالى .

« لم تعد بى رغبة فى تلك الحياة الجديدة ..

وقد فصلتنى عنك فيهـا قطعة من الزمان ، هى فى حساب الدنيا أيام معدودات ، وهى فى حسابى دهور وأعمار ..

« ويا ويلى من قصور اللغة !!

« أقول فصلنى عنك الزمان ، ولا والحبِّ ما تفصلنى عنك قوة فى الأرض أو فى السماء ...

« وما تغيبين عنى لحظة فى يقظة أو منام ...

« وإن كنت مع ذلك أفتقدك فى كل زمان ومكان ..

« وأنت أنت ، على النأى والقرب ، ملء عينى ، ملء قلبى ، ملء دنياى ...

* * *

« كل مكان لستِ فيه غريب عنى بغيض إلىّ ..

« وكل لحظة تمر دون أن ألقاك ، عبث خاسر وعمر مضيع ..

« وأنت مع ذلك فىّ ، حيثما أقمتُ ، وأنى توجهت ..

« أتنفسك هواء ، وأعيش بك دما ، وأحيا بك روحاً ، واستروحك حياة . . .

✡ ✡ ✡

« كل الذى مضى من عمرى دون أن ألقاك ، غير محسوب على .
« وأنا بروحى قد التقيت بك منذ الأزل . .
« وعشت بك ، ولك ، ومعك . .
« منذ انبثقت روحك السماوية من نور الإله . .

✡ ✡ ✡

« يفنينى الحنين لك وأنت معى .
ويضنينى الشوق إليك وأنت كل حياتى . .
« ويعز على الصبر عنك وأنت منى وإلىّ
« وهيهات أن تسع الدنيا بعض هذا . .
« أو يسعف عليه الزمن . .
« أو يحتمله كيان من لحم وأعصاب ودم

✡ ✡ ✡

« رأيتكِ فرأيت النور والحياة . . .
« وعرفتك ، فأرهقتنى معرفتى لك واستنفدنى الانفعال بك .
« وغدوت مجهد الأعصاب من عنف ما أجده فيك وأعرفه منك . . .
« فإذا غُلب الصبر ، ونفد الاحتمال ، أوشكت أن أسأل السماء بعض

الصبر عنك ، لكن نفسى لا تلبث أن تتمرد على هذا الضعف

« وترى حبى لك ، جديراً أن يُفنى و يُبيد .

« وترانى كفئاً لذلك الحب ...

« وتراك أهلا لى وله

«وهذه هى الحياة الثانية ، أعافها وأزهدها . يا مَنْ كنتِ سر الحياة ...

« وهأنذا أمضى ساعياً إليك . . .

« إلى وقدة النار ، وبهرة النور . . .

« إلى عصف الهوى ، وغشية النشوة . . .

« إلى قسوة الألم ، وروعة اللقاء . . .

« إلى عنف التبدد ، وهول الفناء . . .

« وفى عينى بريق العزم والإيمان . . .

« وعلى شفتى ابتسامة الرضى والهناءة . .

« وعلى وجهى إشراق الاستشهاد ... »

☆ ☆ ☆

وانتهت الصلاة ، وهجع فرعون فى سلام .

صمت ... فما سمعته بعدها أبداً .

٤ — فنـــاء

ومضت البقية االأخيرة من الليل ، وأنا أرقب علامات البقاء تتسرب من الجسد الراقد ، وقد عصمنى من الجزع والحزن ، فيض من السكينة كان يشيع فى كل ما حوالى ، منبعثاً من الجسد النائم فى سلام . . .

وتسلل نور الصبح إلى القبر فأضاء الوجه الملكى وحف بالتابوت المجيد ، فانحنيت بجانبه خاشعاً متعبداً أصلى . . .

وجاء القوم يحملونه إلى العربة الواقفة بالباب ، وقد جلس السائق إلى عجلة القيادة وتهيأ المسير . . . لكنهم ما لبثوا أن تراجعوا فى ذهول وعجب ، وصاح صائحهم :

« ما نستطيع أن ننقل المومياء ... لقد تفكك الجسد وانحل ، وصار هباء ... »

فنهضت من صلاتى وما أزال فى غشية الخشوع وخدر الحلم ، وألقيت على الجسد نظرة مودعة حزينة ، قبل أن تزال عنه اللفائف التى تمسكه ، ثم استدرت فى بطء فرنوت إلى الباب الوهمى ، فإذا الروح قد زايلت مكانها هناك ... إلى الأبد .

« لقد تحلل الجسد ، فما عادت تعرفه ، ولا تستطيع العودة إليه والائتلاف به والاندماج فيه ...

٥ — سر فرعون

وامتلأ المخدع بالعمال ومندوبى مصلحة الآثار ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون : كيف أمكن أن يدب الفساد إلى هذا الجسد المحنط ، وقد غلب الفناء ثلاثين قرناً من الزمان ؟ أين سحر الفراعنة وسر الكهان ؟

وكنت وحدى أعرف الجواب .

« لقد كانت رغبة الروح فى الحياة تمسك عليه جسمه وتعصمه من الفناء ، فلما فقدت تلك الرغبة ، تعطل سره الأكبر ، وبطل سحره العتيد ، ومن ثم غلبه الموت ، ودب فيه التفكك والانحلال »

على أنى أمسكت صامتاً لا أجيب ، وانصرفت إلى مأواى مجهداً متعباً كأنى عائد من سفر شاق طويل ...

لم أشعر فى تلك اللحظة التى انهار فيها بنيان الملك أمامى ، بحزن أو ألم ، ولم أفكر فى تلك التجربة الروحية الرائعة التى انقطعت قبل أن تبلغ مداها ، ولم يخامرنى جزع على الحرمان من تلك المتعة النادرة التى تذوقتها شهراً بأكمله. كان عالمى النفسى جامداً معطلا ، على حين شعرت بكيانى المتعب يئن من فرط الإعياء ، فلم أعد أشتهى سوى ساعة من النوم ، بعد أن دأب علىّ السهاد .

وكان ذلك آخر عهدى بالتجربة ..

ولقد كنت أرجو بعد ذاك أن تتحدث الروح إلىّ من عالمها الخفى غير المنظور ، أو على لسان وسيط كما يحدث فى جلسات الاستحضار التى كنا نمارسها بنجاح فى هذا الحين . وكان ذلك أقصى ما أطمح إليه بعد أن انحل الجسد وانهار ، لكن جهودى المضنية فى سبيل الاتصال بالروح ، ذهبت كلها عبثاً .

القسم الخامس

الميت الحيّ

حين بلغ الأستاذ (م) هـذا القدر من قصته ، أطرقنا صامتين نتنهد في إعياء من أثر الجهد الذى عانيناه ونحن نعيش فى ذلك العالم الروحى العجيب الذى نقلنا إليه حديثُه الغريب عن تجربته الهائلة . ومضى هو ينظر إلينا ، ويداه تعبثان بمسبحة جميلة حباتها من خرزات فرعونية أثرية .

ونهضنا مستأذنين فى الخروج ، فجاء يصحبنا ونحن نعبر جسر قصر النيل فى طريقنا إلى « الأورمان »

وكان النهر يجرى تحت أقدامنا ، متدفقاً من سحيق الوادى ...
متعب الأمواه ، مكدود الموج ..
شُحبت حمرته ، وابيض ماؤه ، وهدأ متأملا ..
والغروب الباهت ، مطرق يتسمع ، واجم يتبين
والهلال الأول[1] من عام القمر ، يبدو نحيلا قد مسه لغوب وشحوب...

وآن لنا أن نفترق ، فقال الأستاذ (م) وهو يتكلف ابتسامة مازحة مرحة :

— أكان ذلك كله وهم واهم ؟ من يجرؤ ... ؟
أكان ذلك كله رؤيا نائم ؟ مَنْ يدّعى ... ؟
أكان ذلك كله خيال خائل ؟ من يزعم ...؟
أكان ذلك كله هذيان مريض ذاهل ؟ من يقول ...؟

---

(١) هلال المحرم عام ١٣٦٠

على أنى أعيد هنا ما قلته من قبل : « إنى لا أحمل سواى على الإيمان بأن ما رأيت ، وما سمعت ، وما شاهدت ، كان حقيقة واقعة ، لكنى أرجو ألا يتسرعوا فيحملوه على زور الوهم أو تهاويل الخيال »

ثم تطلع إلينا سائلا رأينا فيما سمعنا .

قلت فى ضعف :

ما رأيت كاليوم حقاً يلتبس بالوهم ...

ولا سمعت كاليوم واقعاً يبدو فى صورة الخيال ...

وعقب صاحبى وهو يصافح الأستاذ (م) :

— بلى سمعنا ووعينا ، وإنها لتجربة كانت وشيكة أن تزيح بعض الحجب عن عالم الروح الذى أمضى الإنسان ملايين السنين يرنو إليه ، ويحوم حوله ، ويحلم به . ومن يدرى أيها الصديق ؟ ! لعلك عائد إليها يوماً فماضٍ فيها إلى المدى الذى استشرفت .

✡✡✡

ثم استطرد — وقد استقبلنا المغرب فى رياض الجزيرة ، حيث كانت فلول النهار قد توارت مسرعة وراء الافق ، تاركة من خلفها ظلالا تتمايل ، وأشباحاً تترنح ، وأطيافاً تحوم — قال :

« كذلك يشهد النفسيون فى تلك القصة تجربة لعل الحياة لم تظفر بمثلها ، وحسبك أنها حياة كأكمل ما تكون الحياة ، وهى كأوهن ما سمع عنه الناس من وهن ...

لقد عاش الملك فى تلك التجربة الذاهلة ماعاش ، يخلو إلى نفسه و يعكف على كيانه ، فإذا هو في دنيا ضاجة ولا صوت فيها ، صاخبة ولا ضوضاء لها .

يغيب أحياناً فلا يحس شيئاً .

و يذهل أحياناً ، ثم يثوب من ذهوله ساجياً رهواً ، لكنه متوثب يضطرم ...

أهكذا كان يبدو جامداً صامتاً ، وهو جياش النفس ثائر الروح ، تلاحقه هتافات سامية ، وترن فى أذنيه أصداء رائعة ، وتتراءى لعينيه مناظر فاتنة ، وتلوح له نظرات خلابة ، وتملأ يديه مصافحات حارة ، وتهز قلبه استجابات مؤمنة ؟ !

أهكذا كان يظهر هادئاً بارداً ، وهو منفعل مشتعل ، تعصف به آهات ، وتلفحه تنهدات ، وتثيره ذكريات ؟

أهكذا كان يلوح ساكناً مقعداً ، وهو أسرع سريانا من النسيم ، وأكثر توثباً من البحر ، وأعلى ضجيجاً من الأمواج ؟

أهكذا كان حياة ، وحركة ، وشعوراً ، وانطلاقاً ، يجوب أقطار الوادى ، و يتنقل فى جنبات القطر ، والدنيا جميعاً تطوى لحياته الحية ، وقوته الروحية الجامحة ، ونفسه الجياشة الفائرة ؟

كان كذلك فى مرأى نفسه ومدرك حسه ، أما فيما يرى الناس ، فكان أقتم من الظلام الدامس ، وأشد صمتاً من الليل النائم ، وأهمد من الصحراء ، وأسكن من صخور الجبل .

فى وجوم حالم ، أو حلم واجم .

نوم كالموت ، وسكون كالفناء .

هو تمثال إنسان ، مضت عليه أجيال : شاخصاً بلا حراك ، شاهداً بلا حضور .

وكان وحده هو الذى يجد هذا وذاك ، حين كان يظنه من يراه : حياً فى الأحياء ، أو ميتاً فى الأموات ، أو نائماً فى النيام ، أو ذاهلا فى الشاردين .

وهو إن ظُن فى الأحياء ليس مثلهم ...

و إن عُد فى الأموات ليس بينهم .

و إن حسب فى النيَّام فهيهات أن يكون منهم .

و إن خيل ذاهلا فهو أعنف الواعين .

وكذلك أمضى رحلة حياته ، وتجربة بعثه :

فى غشية تملؤها اليقظة ،

وذهول يعصف به الوعى .

وصمت يتنفس فيه الإعياء ،

وجمود يذيبه الشجو .

وحياة يغشاها الموت .

وما رأينا كاليوم حقاً يشتبه بالباطل .

إنها لقصة ...! »

✲ ✲ ✲

والتمسنا الأستاذ « م » بعد أيام ولما تزايلنا غمرة الدهشة مما قص علينا ، فألفيناه قد جذبته دوامة العاصفة الإنسانية العاتية الهوجاء ، إلى قطبها العنيف فى صميم أوربا ، وألقت به فى الغرب ، حيث كانت النار تأكل وطنه وتحصد مواطنيه .

أترى تذكره هـذه العاصفة ، بتلك الأخرى التى عاناها فى شرق الدلتا ، وهو جالس فى العراء على « الصخرة الراصدة » يرنو إلى المخدع الملكى فى ذهول واجم حزين ؟

أم تراه قد نسى فى ضجة الميدان ، رؤى ذلك الحلم الذى رآه فى دنيا الواقع وعالم الشهود ، فى تلك البقعة الساكنة المنعزلة من وادى النيل المبارك ، فى مصر الساحرة الخالدة ؟

دليـــل

القسم الأول

عالم القصـــة

القسم الثانى

البعث

القسم الثالث

حب عظيم

القسم الرابع

عالم ينهـار

القسم الخامس

١٩٤٧/٢١٩٨